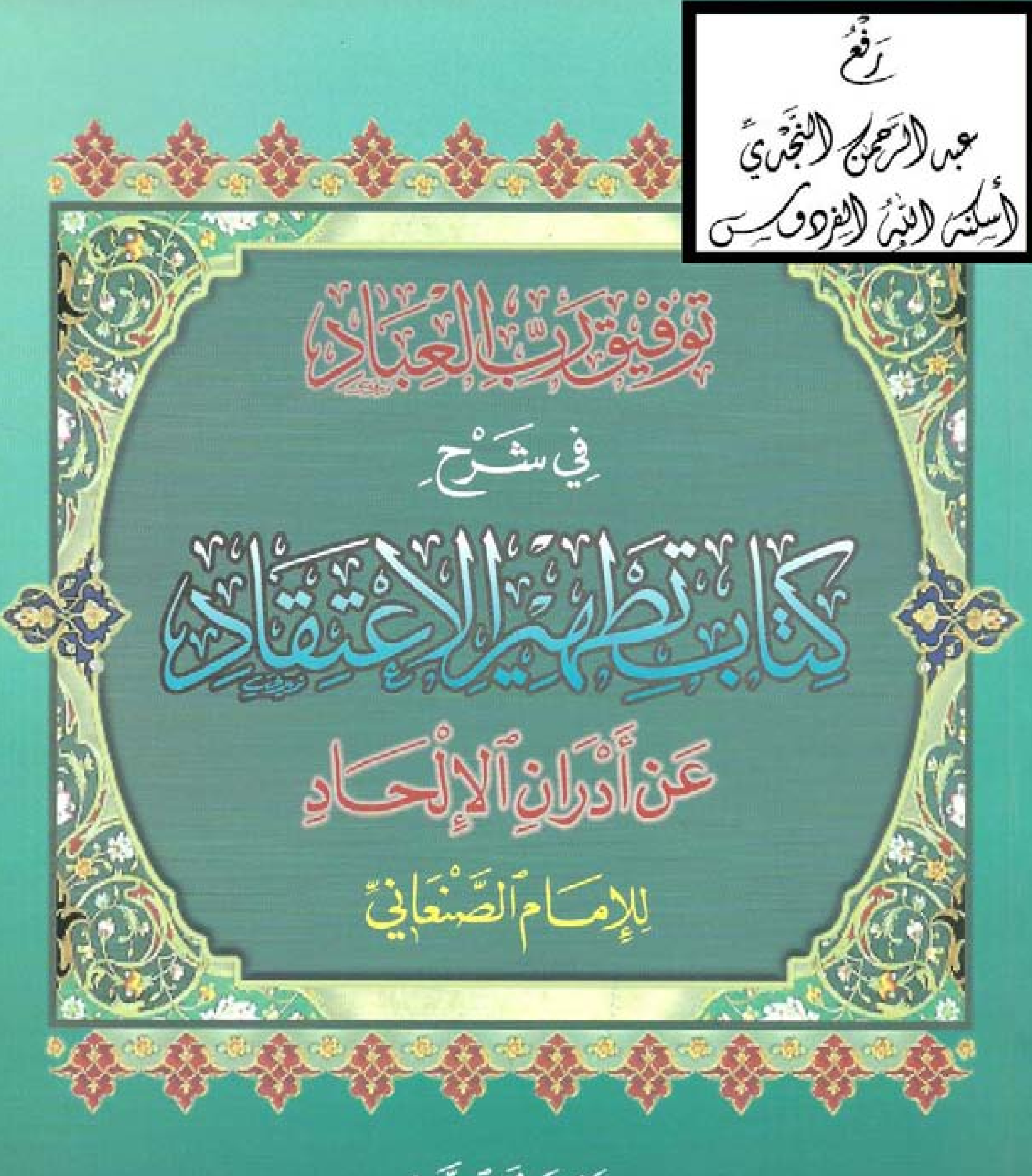
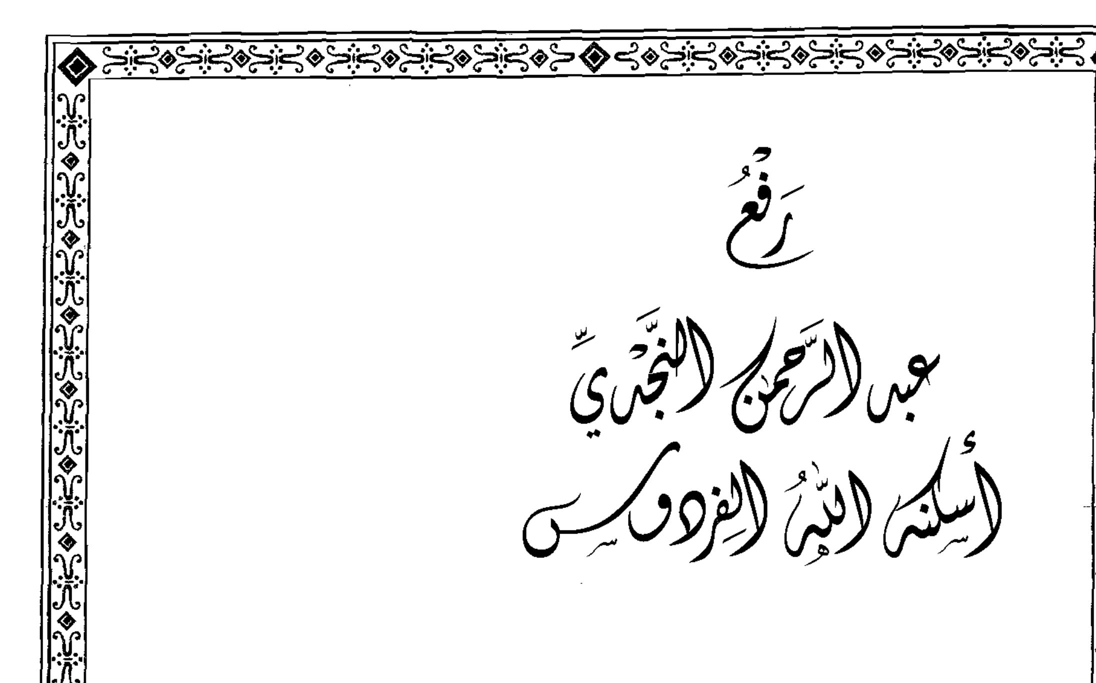


دار ابن الجوزي

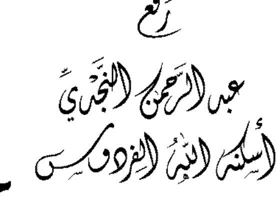


توفيق رب العباد

في شرح

كتاب تطهير الاعتقاد

عن أدران الإلحاد



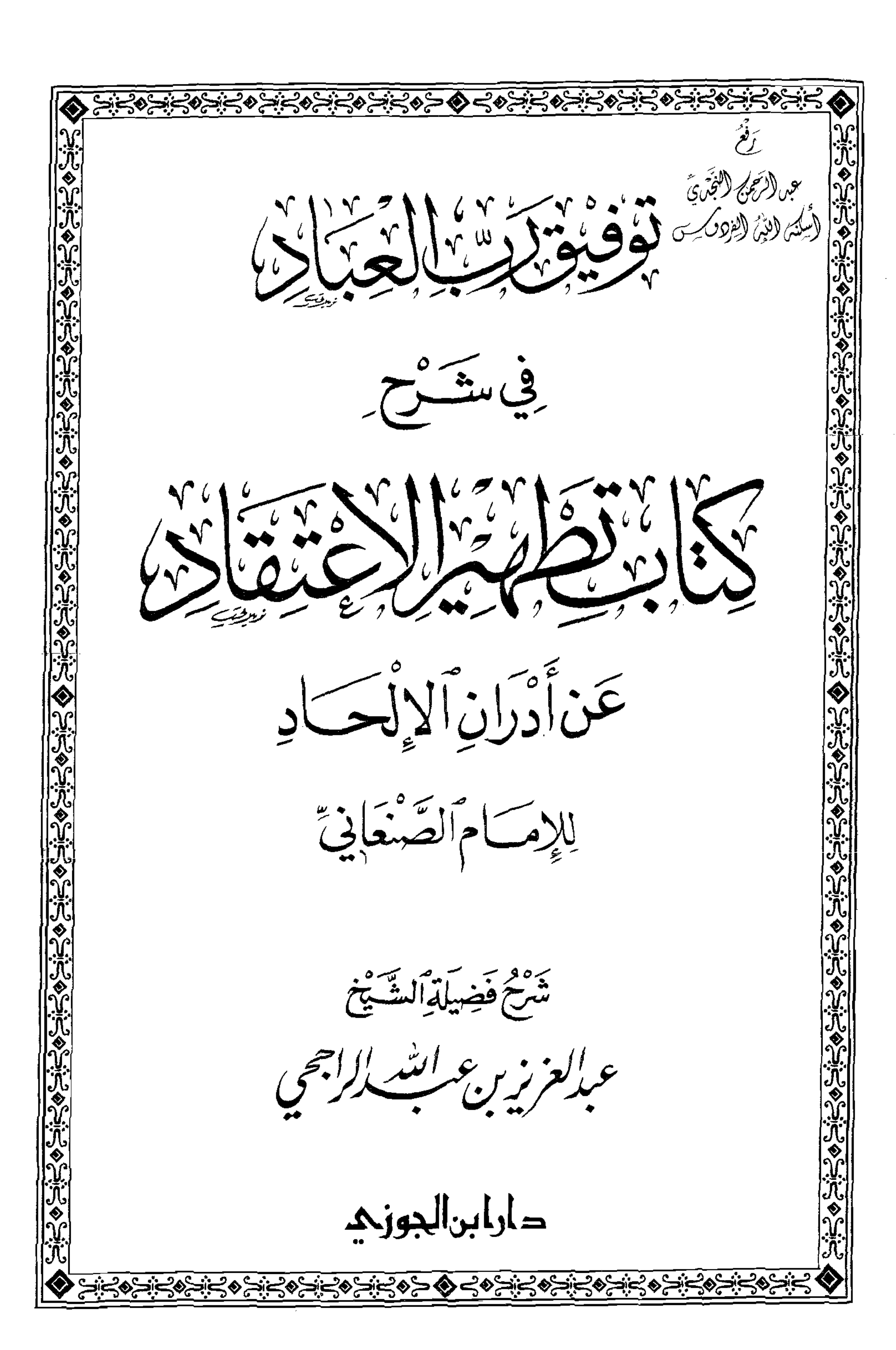


دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

البريد الإلكتروني : **aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com**



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

توفيق رب العباد

في شرح

كتاب تطهير الاعتقاد

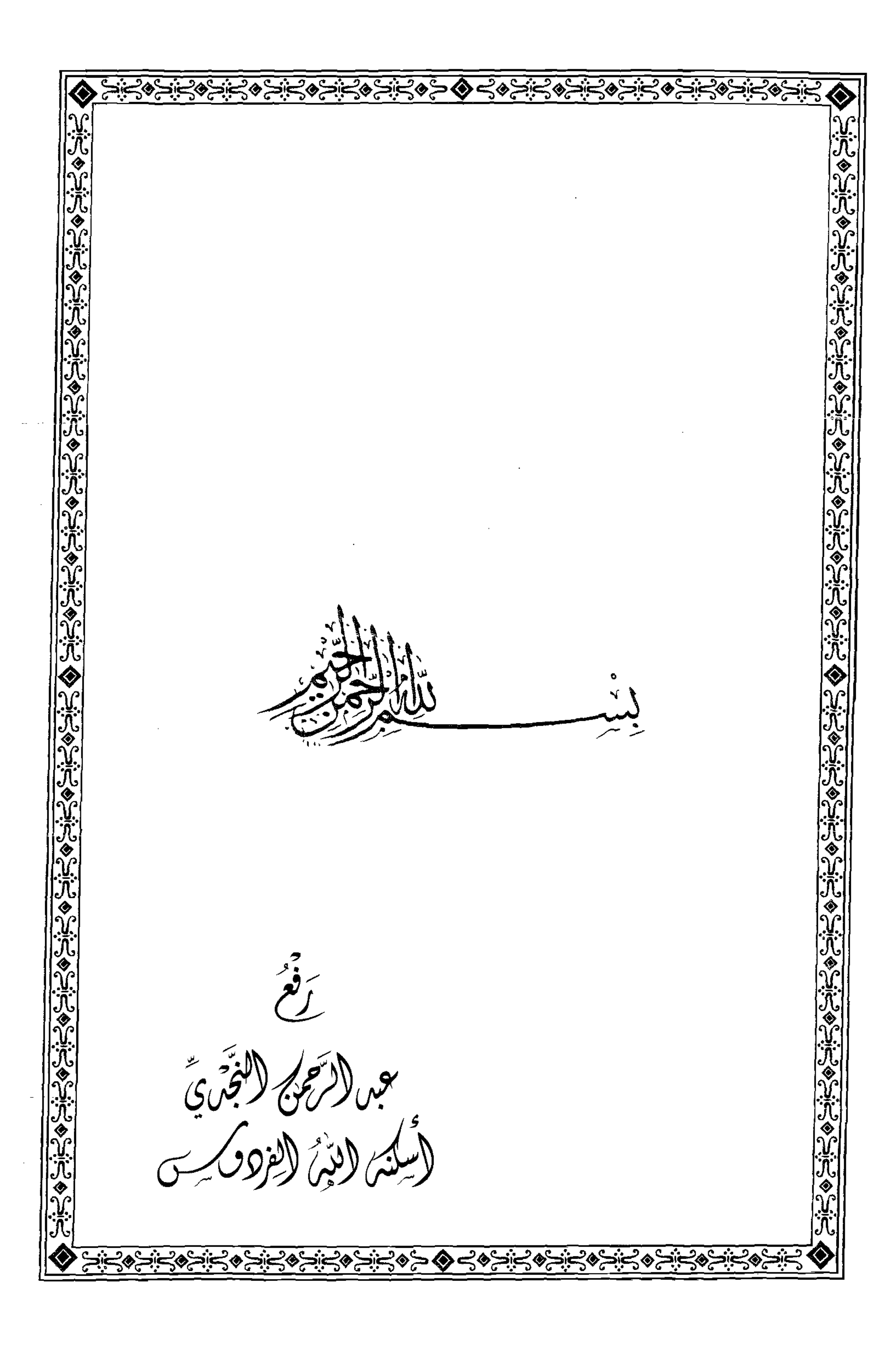
عن أدران الإلحاد

للإمام الصنعاني

شرح فضيلة الشيخ

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذا شرح مختصر لكتاب «**تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد**» للعلامة الصنعاني رحمه الله، شرحته في دورة علمية، ثم روجع بعد تفريغه من الأشرطة، وطبع الطبعة الأولى وحصل فيها بعض الأخطاء، ورغبت دار ابن الجوزي في إعادة طباعته، فراجعته بنفسي كلمة كلمة، رجاء تفاديَّ الأخطاء سائلاً المولى عز وجل التوفيق والسداد.

وموضوع هذه الرسالة موضوع عظيم، فهو في التمييز بين توحيد الأنبياء والمرسلين، وتوحيد المشركين، والفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة والألوهية، وفي الرسالة بيان بعض أنواع الشرك، وبعض أنواع الكفر، وبيان بعض البدع والتحذير منها، فهي رسالة مفيدة لعموم المسلمين، والحاجة ماسة إلى نشر هذه الرسالة وأمثالها.

وأسميت هذا الشرح «**توفيق رب العباد في شرح كتاب تطهير الاعتقاد عن أردان الإلحاد**». وأسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة وبشرحها الذي علقته عليها، وأن يرزقنا الإخلاص في العمل والصدق في القول، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يختم لنا بالحسنى إنه سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم على عبدِ الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي



بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع: مقدمة كتاب **التاريخ:** ٢/٢٨ / ١٤٣٠هـ **الرقم:** ٢٩/٢/٨٢٩

(مقدمة الطبعة الثانية)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فهذا شرح مختصر لكتاب (تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد)، للعلامة الصنعاني -رحمه الله-، شرحته في دورة علمية، ثم روجع بعد تفريغه من الأشرطة، وطبع الطبعة الأولى وحصل فيها بعض الأخطاء، ورغبت دار ابن الجوزي في إعادة طباعته، فراجعته بنفسي كلمة كلمة، رجاء تفاديَّ الأخطاء سائلاً المولى -عز وجل- التوفيق والسداد.

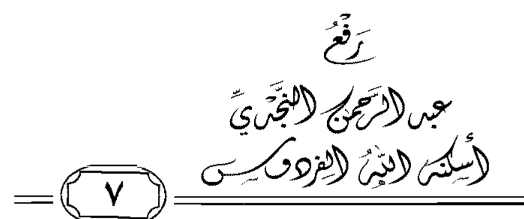
وموضوع هذه الرسالة موضوع عظيم، فهو في التمييز بين توحيد الأنبياء والمرسلين، وتوحيد المشركين، والفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة والألوهية، وفي الرسالة بيان بعض أنواع الشرك، وبعض أنواع الكفر، وبيان بعض البدع والتحذير منها، فهي رسالة مفيدة لعموم المسلمين، والحاجة ماسة إلى نشر هذه الرسالة وأمثالها.

وأسميت هذا الشرح (**توفيق رب العباد في شرح كتاب تطهير الاعتقاد عن أردان الإلحاد**). وأسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة وبشرحها الذي علقته عليها، وأن يرزقنا الإخلاص في العمل والصدق في القول، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يختم لنا بالحسنى إنه سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم على عبدِ الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

هاتف: ٤٤٥٥٩٩٥ فاكس: ٤٤٥٥١٤٦ ص.ب ٢٤٥٩٦٠ الرياض ١١٣١٢
Tel: 4455995 Fax: 4455146 P.O Box: 245960 Royadh: 11312



ترجمة الإمام الصنعاني

من العلماء الذين ظهروا في اليمن في القرن الثاني عشر الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو إمام مجتهد، كان له باع طويل في العلم، وخلَّف تراثاً ضخماً تجاوز الثلاثمائة مؤلف ما بين كتاب كبير ورسالة صغيرة، وكان له إلى جانب الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى أثر كبير في النهضة العلمية الإصلاحية في العصر الحاضر، لهذا أحببت أن أضع بين يدي القارئ الكريم لمحات عن حياة هذا العالم نتناول سيرته الذاتية، وجهوده العلمية، وعقيدته ومذهبه، وذلك وفاءً بحق هذا العَلَم، ودفعاً لما يمكن أن يظن به، بسبب ظهوره في بيئة زيدية معتزلة، بل إن بعض الباحثين لا يرغب في دراسة أمثال هؤلاء، مع تحررهم من التقليد والتبعية، واتباعهم للكتاب والسنة المحمدية، وقد ذكر ذلك الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «ولا ريب أن علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلا مجرد التقليد لمن لم يطلع على الأحوال، فإن في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف، يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة ويعتمدون على ما صح في الأمهات الحديثية وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام ﷺ ولا يرفعون

إلى التقليد رأساً، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها، بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل على كتاب الله وما صح من سنة رسول الله ﷺ، لاشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة. . .»[١].

وبعد؛ فهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود.

أولاً: سيرته الذاتية وتشتمل على ما يلي:

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد بن علي، وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ويكنى «بأبي إبراهيم» وإبراهيم هو أكبر أولاده، وأمه ابنة السيد هاشم بن يحيى الشامي، وقد تزوجها الصنعاني في شوال عام (١٣١٧هـ)[٢]، ويلقب «بالمؤيد بالله»، وقد ذكر ذلك صديق خان[٣] والزركلي[٤]، وهو غير مشهور به بين أهل العلم كلقبه الثاني وهو: «البدر»[٥] وقد اشتهر به شهرة واسعة، والبدر: هو القمر إذا امتلأ، ويشبه الرجل به إذا تم وكمل،

---

[١] البدر الطالع (ص٢ ـ ٨٣).
[٢] نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف للمؤرخ زبارة (٣/ ٣١).
[٣] أبجد العلوم (٣/ ١٩١).
[٤] الأعلام (٦/ ٢٦٣).
[٥] نشر العرف (٣/ ٢٩)؛ والروض النضير لإبراهيم بن محمد بن إسماعيل (ص٣٣٢).

قال ابن منظور[١]: «وبدر القوم: سدهم على التشبيه بالبدر». كما اشتهر الصنعاني أيضاً «بالأمير»، وهو يطلق عليه وعلى أجداده، كما يطلق على أحفاده، ولكن إطلاقه عليه أشهر، وقد قال الشوكاني[٢] سياقه لنسبه: «المعروف بالأمير»، والأمير نسبة إلى الأمير الشهير: «يحيى بن حمزة بن سليمان» (ت٦٣٦هـ)[٣] ولهذا يقال للصنعاني: «الأمير»، ويقال أيضاً: «ابن الأمير».

وقد لقَّب الشيخ عبد الحي الكتاني رَحِمَهُ اللهُ الصنعاني «بالمتوكل على الله» والصواب أن هذا ليس لقباً له، وإنما لأبيه كما قال الزركلي[٤] في ترجمة محمد بن إسماعيل: «... يلقب المؤيد بالله» ابن «المتوكل على الله».

مولده ونشأته الأولى:

ولد محمد بن إسماعيل ليلة الجمعة نصف جمادى الآخرة عام (١٠٩٩هـ)[٥]. بمدينة «كحلان»[٦]، ثم انتقل مع والده إلى مدينة «صنعاء» عام (١١٠٧هـ) كما ذكر الشوكاني[٧]، وقد ذكر المؤرخ

---

[١] لسان العرب (٤/ ٤٩).
[٢] البدر الطالع (٢/ ١٣٣).
[٣] نشر العرف (٣/ ٢٩).
[٤] الأعلام (٦/ ٢٦٣).
[٥] البدر الطالع (٢/ ١٣)؛ ونشر العرف (١/ ٢٩).
[٦] كحلان من أشهر مخاليف اليمن، وبينها وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخاً. معجم البلدان لياقوت (٤/ ٤٣٩).
[٧] البدر الطالع (٢/ ١٣٣).

زيارة أنه انتقل عام (١١١٠هـ)، ثم ذكر في ترجمة والد الصنعاني أنه انتقل عام (١١٠٨هـ)[١]، والذي أميل إليه في ذلك هو رأي الشوكاني رحمه الله لقرب عهده بالمترجم له، كما أنه لم يذكر إلا تاريخاً واحداً، وقد ذكر المؤرخ زبارة تاريخين مختلفين كما سبق ذكره.

وقد أقام الصنعاني رحمه الله بصنعاء ومات فيها، ولم يخرج منها إلا لتلقي العلم على يد المشايخ، أو للابتعاد عن السلطة الحاكمة في صنعاء، في نهاية الأمر استقر بها حتى وفاته.

وقد أتم الصنعاني حفظ القرآن عن ظهر قلب بعد دخوله صنعاء، ولعل الباعث لهجرة والد الصنعاني من «كحلان» إلى «صنعاء» رغبته في تلقي العلم له ولأولاده على علماء صنعاء، وقد رجح ذلك مؤلفو كتاب «ابن الأمير وعصره»[٢].

ورعه وزهده:

عاش الصنعاني رحمه الله حياته مكباً على العلم ونشره والدعوة إليه، ولم يطلب جاهاً أو سلطاناً، ولما ولاه المهدي العباس أوقاف صنعاء في رمضان عام (١١٦١هـ) باشر أعمال الوقف بصدق وأمانة، واتخذ بيتاً صغيراً قريباً من بيته لسِجن فيه من يستحق التأديب فراراً من السجن بقصر صنعاء للتأثم عن زيادة العقوبة، ثم اعتذر عن الوقف وقال: إن ولايته للوقف عقوبة من الله على ذنب يعلمه بعينه،

---

[١] ملحق البدر الطالع (ص٢ ـ ٦٠).

[٢] كتاب ابن الأمير وعصره لقاسم غالب ورفقاه (ص١٢٧، ١٢٨).

وأوصى بأن يتصدق من تركته بمائة قرش، ومائة قرش لفقراء بني هاشم تورعاً من الوقف[١].

وقد عرض عليه المتوكل القاسم بن الحسين تولية القضاء في بندر «المخا»[٢] فامتنع، ثم عرض عليه الوزارة فامتنع، ثم القضاء العام والتصدر على الأعلام فامتنع من قبول جميع ذلك، واستقر على عادته في التدريس ونشر الإفادة[٣].

وكانت العبادة هَمُّه وذكر الله شغله، وقد قال في قصيدة أرسلها إلى والده عند عزمه للحج في عام (١١٣٢هـ):

ومن كان ذكر الله زاد رحيله كفاه عن الزاد المجازى وأغناه
ومن كان بيت الله غاية همه فطوبى له إن نال ما يتمناه[٤]

وقد قال فيه صديق خان: كان إماماً في الزهد والورع. حكى بعض أولاده أنه قرأ في صلاة الصبح وهو يصلي بالناس ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ فبكى وغشي عليه[٥] وكان دائماً يُذَكر نفسه بلقاء ربه، فيقول في نحو سنة (١١٧٠هـ) وقد حمل العصا في يده:

ما حملت العصا بِضعف ولكني رأيت الرحيل مني قريبا

---

[١] نشر العرف (ص٣ ـ ٤١).
[٢] المخا: مدينة بساحل البحر الأحمر جنوب زبيد وشمال مضيق باب المندب.
[٣] نشر العرف (ص١ ـ ٣١)؛ وابن الأمير وعصره (ص١٦٥).
[٤] ديوان الأمير الصنعاني (ص٤٣٤).
[٥] أبجد العلوم (ص٣ ـ ١٩١).

فحملت العصا لتذكير نفسي أنني صرت في الأنام غريبا[١]

ثانياً: سيرته العلمية وتشتمل على ما يلي:

١ ـ نشأته وتحصيله العلمي:

نشأ الصنعاني في بيئة علمية، فجده كان عالماً فاضلاً، وأبوه كان من العلماء المحققين في معظم الفنون، يقول عند حفيده إبراهيم: «حقق الفقه والفرائض ودرس ونقل ونظم واشتهر بالعلم والفضل والزهد والورع والتقوى وحسن الخلق، ولطف الطبع والتقشف الباهر ولين الجانب، ومجانبة الدول وأربابها...»[٢]، وهكذا ذكر عنه صديق خان، والمؤرخ زبارة[٣].

وقد تأثر الصنعاني بالجو العلمي المحيط به، فحفظ القرآن عن ظهر قلب، وبدأ بالطلب وهو صغير السن، فدرس الفقه والنحو والبيان وأصول الدين والحديث وتفوق في ذلك، حتى أعجب به مشايخه، وقد ذكر الشوكاني أنه قرأ الحديث على أكابر علماء مكة والمدينة وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران وتفرد برئاسة العلم في صنعاء[٤].

وقد أحب الصنعاني العلم والبحث وتطلع إليها فاستهان المشاق في سبيل الطلب، فقد رُوي عنه أنه كان يكتب «زاد المعاد» لابن

---

[١] ديوان الصنعاني (ص٦٠)؛ ونشر العرف (ص٣ ـ ٦٦).
[٢] نشر العرف (ص١ ـ ٣٨٢).
[٣] نشر العرف (ص١ ـ ٣٦٢، ٣٦٣).
[٤] البدر الطالع (ص٢ ـ ١٣٣).

القيم، وكتاب «بهجة المحافل» على ضوء القمر لعدم توفر السراج، ولمَّا وصل عالم زبيد الشيخ «عبد الخالق المزجاجي» إلى صنعاء انصرف الصنعاني إليه ليدرس على يديه صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود، وكان الناس يذهبون إلى البيت الحرام للحج، ولكن الصنعاني كان يذهب للحج والعلم معاً كما سيتضح من رحلاته[١].

٢ ـ رحلاته في طلب العلم:

للرحلة في طلب العلم مكانة كبيرة بين العلماء والمحققين، وعند علماء الحديث بوجه أخص، وقد نشأت في عصر الصحابة رضوان الله عليهم فجابر بن عبد الله ﵁ يرحل من المدينة إلى الشام ليقف على حديث واحد.

ولقد سار على هذا النهج الأمير الصنعاني، فرحل إلى أرض الحرمين الشريفين ليؤدي نسكه ويلتقي بالعلماء والمحققين ويأخذ العلم عنهم، ولقد حج أربع مرات في كل مرة كان يلتقي بالمشايخ ويستفيد منهم ويلازمهم، وكانت رحلته الأولى في عام (١١٢٤هـ) كما ذكر ذلك صاحب كتاب نفحات العنبر، وقد أخذ الصنعاني في هذه الرحلة عن ابن أبي الغيث أوائل الصحيحين وغيرهما وأجازه إجازة عامة، كما أخذ عن الشيخ طاهر بن إبراهيم الكردي، ثم ذهب إلى الحج للمرة الثانية عام (١١٣٢هـ)، وزار المدينة النبوية واجتمع فيها بالشيخ الحافظ أبي الحسن بن عبد الهادي السندي، وكانت بينهما

[١] نشر العرف (ص٣ ـ ٣٠)؛ وابن الأمير وعصره (ص١٣٨).

مباحثة ومراسلة علمية، ولم يرجع إلا في ربيع الأول من عام (١١٣٣هـ)، ثم حج الحجة الثالثة عام (١١٣٤هـ)، واجتمع في الحجاز بالشيخ العلامة الأشبولي، والشيخ عبد الرحمٰن بن أسلم وغيرهما، وقرأ على الشيخ العلامة محمد بن أحمد الأسدي شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد، وشرع في تأليف حاشيته عليه المسماة: «العدة على شرح العمدة»، وقرأ في علم التجويد على الشيخ المقرئ الحسن بن حسين شاجور، وأخذ عن الشيخ سالم بن عبد الله البصري في مسند الإمام أحمد بن حنبل، وفي صحيح مسلم وإحياء علوم الدين، ثم رجع إلى صنعاء وأحيا السنن واستمر على التدريس والفتيا والتأليف أما الحجة الرابعة والأخيرة فكانت في عام (١١٣٩هـ)، وفيها اجتمع ببعض العلماء المحققين، وأقام مدة في الطائف بعد الحج، ثم رجع عن طريق الحجاز، ولما وصل إلى مدينة «صعدة»[١] بلغه أن أمر الخلافة قد استقر للإمام الناصر «محمد بن سحاق»، فاجتمع به في «شبام»[٢]، ومنها عزم إلى «شهارة»[٣] في ذي القعدة عام (١١٤٠هـ)، ولازم التدريس والإفادة والفتيا بها، وبقي فيها حتى صفر من عام (١١٤٨هـ)، ثم رجع إلى صنعاء وعكف فيها على التدريس والتأليف، ولم يذهب إلى مكان آخر خارج القطر

---

[١] بلدة في شمال صنعاء على مسافة ستون فرسخاً. معجم البلدان (ص٣ ـ ٤٠٦).

[٢] شبام: جبل عظيم فيه شجر وعيون وهو صعب المرتقى، وبينه وبين صنعاء يوم وليلة. المرجع السابق (ص٣ ـ ٣١٨).

[٣] وهي حصن من حصون صنعاء باليمن. السابق (ص٣ ـ ٣٧٤).

اليماني إلا هذه الأماكن المذكورة في رحلاته الأربع.

وقد رحل إلى مدينة «كحلان»، وهي المدينة التي ولد فيها ليتلقى العلم على يد الشيخ: صلاح بن الحسين الكحلاني، وكان ذلك في عام (١١٢٨هـ) تقريباً وقرأ عليه هناك في شرح الأزهار[١].

من مؤلفاته:

(توضيح الأفكار، شرح تنقيح الأنظار ـ ط) مجلدان في مصطلح *.

(سبل السلام، شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني ـ ط).

(منحة الغفار) حاشية على ضوء النهار.

إسبال المطر على قصب السكر.

المسائل المرضية في بيان اتفاق أهل السنة والزيدية.

السيوف المنضية على زخارف المسائل المرضية.

اليواقيت، في المواقيت ـ خ.

إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد ـ ط.

شرح الجامع الصغير للسيوطي.

تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ـ ط.

الرد على من قال بوحدة الوجود، وغيرها منها ما طبع ومنها ما لم يطبع.

---

[١] نشر العرف (ص٣ ـ ٥٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام العلامة الحَبر الفهَّامة الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله تعالى:

الحمد الله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد حتى يُفردوه بتوحيد العبادة كلَّ الإفراد، فلا يتَّخذون له ندّاً، ولا يَدْعون معه أحداً، ولا يتَّكلون إلَّا عليه، ولا يَفزعون في كلِّ حال إلَّا إليه، ولا يَدعونه بغير أسمائه الحسنى، ولا يتوصَّلون إليه بالشفعاء: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[١] [البقرة: ٢٥٥].

---

[١] افتتح الرسالة بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز، ثم ثنى بالحمد لله، قال: «الحمد لله». كما افتتح الله تعالى كتابه العظيم القرآن، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢].

قوله: (الحمد لله): «أل» للاستغراق، والمعنى أن الحمد هو الثناء على المحمود بصفاته الاختيارية، مع حبه وإجلاله وتعظيمه، والحمد أسمى من المدح، فالمدح هو أن تخبر عن صفات الممدوح وأن تذكر صفاته، وقد تكون هذه الصفات خلقية ليست اختيارية، كما تمدح الأسد بأنه قوي العضلات، هذا مدح وليس من الحمد.

وبين الحمد والشكر عموم وخصوص وجهي: فالحمد يكون بالقول، والشكر يكون بالقول والفعل والاعتقاد؛ ولهذا فإن الله ﷻ وصف نفسه بالحمد، وأخبر عن نفسه بالحمد «الحمد لله».

والمعنى أن جميع أنواع المحامد كلها لله مملوكة ومستحقة. =

....

= **قوله**: «الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد». المعنى: أن الله تعالى لا يقبل توحيد من وحده في ربوبيته حتى يوحده في عبادته وألوهيته، فالمشركون وهم كفار قريش وغيرهم وحدوا الله في الربوبية، وأقروا بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

إذن هم معترفون وهم موحدون لله في ربوبيته، لكنهم أشركوا معه في توحيد الألوهية والعبادة؛ فلهذا لا يقبل توحيد الربوبية؛ لأنه لا يفيدهم ولا يدخلهم الإسلام، فمن وحد الله في ربوبيته ولم يوحده في العبادة وألوهيته فإن الله لا يقبل هذا التوحيد، بمعنى أنه لا ينفعه ولا يفيده ولا يخرجه من دائرة الشرك والكفر، ولا ينجيه من عذاب الله حتى يوحد الله في العبادة والألوهية، هذا معنى قول المؤلف: الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد.

قوله: «فلا يتخذون له نداً»: الأنداد جمع ند وهو المثيل والنظير، يعني بألا يجعلوا لله مثيلاً ولا نظيراً ولا شريكاً في الربوبية، أو في الألوهية، أو في الأفعال، أو في الصفات، أو في العبادة، فمن جعل لله نداً فإنه مشرك بالله جل وعلا ومن جعل لله نداً فلا يقبل الله منه توحيده إياه في ربوبيته، وهذا هو أعظم الذنوب كما جاء في الحديث، حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: سئل أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[1].

والند: هو المثيل والنظير، فمن جعل لله مثيلاً أو نظيراً في الربوبية، بأن جعل مدبراً مع الله، أو جعل مثيلاً لله في الأسماء والصفات، أو مثيلاً لله في العبادة والألوهية، فهو مشرك، فلا يقبل الله منه أي عمل حتى يوحد الله =

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)؛ ومسلم (٨٦).

....

= ويخلص له العبادة، فمن وحد الله في ربوبيته ولم يوحده في عبادته وألوهيته، بأن اتخذ أنداداً، أي جعل لله أنداداً يدعوهم مع الله، أو يتوكل عليهم، أو يفزع إليهم في حال من الأحوال ـ فإن الله تعالى لا يقبل منه توحيده في الربوبية ـ.

وهذا معنى **قول المؤلف**: «ولا يتخذون له نداً، ولا يدعون معه أحداً، ولا يتكلون إلا عليه، ولا يفزعون في كل حال إلا إليه». ومن لم يفعل ذلك فلا يقبل الله منه توحيد الربوبية، حتى يوحد الله في الألوهية.

«ولا يدعونه بغير أسمائه الحسنى ولا يتوسلون إليه بالشفعاء»: أي لا يجعلون شفيعاً يدعونه ويطلبون منه الشفاعة من دون الله جل وعلا كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ليس بينك وبين الله واسطةً في الدعاء، بل تدعوه وحده ﷻ، تدعوه ولا تجعل واسطة، تدعوه وتطلب منه الشفاعة، هذا هو الشرك كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فالمشركون عبدوا من دون الله، دعوا الأصنام والأوثان، ومنهم من دعا الملائكة ومنهم من دعا الصالحين، ومنهم من دعا الأشجار والأحجار، يدعونهم من دون الله، يطلبون منهم الشفاعة عند الله، فكفرهم الله وجعلهم مشركين في هذا الاعتقاد، حيث صرفوا العبادة لغير الله، ويطلبون منهم أن يكونوا شفعاء لهم عند الله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربّاً ومعبوداً، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، الذي أمره أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وكفى بالله شهيداً[١].

---

[١] **قال المؤلف**: «وأشهد أن لا إله إلا الله»؛ يعني: أقر وأعترف بأنه لا معبود بحق إلا الله، وأنه الرب المعبود.

«وأشهد أنْ محمداً عبد الله ورسوله»: هاتان الشهادتان هما أصل الدين وأساس الملة من لم يأت بهما فليس له إسلام ولا دين، وأصل الدين وأساس الملة الشهادة لله تعالى بالوحدانية، والشهادة لنبيه محمد ﷺ بالرسالة، وهاتان الشهادتان لا تصح إحداهما بدون الأخرى، فمن شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم تقبل منه، ومن شهد أن محمداً رسول الله، ولم يشهد أن لا إله إلا الله لم تقبل منه.

لا بدّ أن يشهد أن لا إله إلا الله، ويشهد أن محمداً رسول الله، فشهادة أن لا إله إلا الله؛ معناها أن يعتقد ويقر بأنه لا معبود بحق إلا الله، ويلتزم بذلك ويعمل به، ويشهد ويقر ويعترف بأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي، المكي ثم المدني ـ هو رسول الله خاتم النبيين، وهو عبد الله ورسوله، عبد ورسول يطاع ويتبع ولا يعبد، فالرسول ﷺ له حق، والله تعالى له حق وهي العبادة، العبادة حق الله، والرسول ﷺ له حق، وهو الطاعة والاتباع والمحبة والتصديق والتوقير والتبجيل، والمؤمنون لهم حق، وهو محبتهم وموالاتهم والاقتداء بهم في أعمالهم الطيبة ـ.

صلى الله عليه وعلى آله والتابعين له في السلامة من العيوب وتطهير القلوب، عن اعتقاد كلِّ شين يشوب[١].

---

[١] هذا دعاء الله جل وعلا بأن يصلي على نبيه ﷺ وصلاة الله على نبيه أصح ما قيل فيها: هي ثناء الله على عبده في الملأ الأعلى، لما رواه البخاري في صحيحه عن أبي العالية أنه قال: (صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء)(١)، ومنهم من قال: الصلاة الرحمة. ومنهم من قال: تشمل الأمرين، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] عطف الرحمة على الصلاة، فأنت تسأل ربك أن يثني على عبده ورسوله محمد في الملأ الأعلى.

وقيل: المراد بالآل: أتباعه على دينه إلى يوم القيامة. وهذا أصح لأنه أعم ويدخل في ذلك أهل بيته دخولاً أولياً ويدخل في ذلك أصحابه، وإذا عطف الأصحاب على الآل صار الأصحاب داخلون في الآل، ويكون عطفهم على الآل من عطف الخاص على العام فتكون الصلاة عليهم مرتين: مرة في العموم بدخولهم في الآل، ومرة في الخصوص.

وقول: وعلى التابعين. عطف التابعين على الآل من عطف الخاص على العام، ولو قال المؤلف: وعلى أصحابه وعلى التابعين لكان أولى.

لكنه قال: وعلى التابعين ويدخل في التابعين الصحابة ومن تبعهم إلى يوم القيامة.

«السلامة من العيوب» وأعظمها السلامة من البدع وأعظم البدع الكفر بالله تعالى.

«وتطهير القلوب» أي: الذين طهروا قلوبهم عن اعتقاد كل شيء يشوب التوحيد.

---

(١) أورده البخاري معلقاً في كتاب التفسير، الفتح (٨/ ٥٣٣).

وبعد:

فهذا «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد» وجب عليَّ تأليفه، وتعيَّن عليَّ ترصيفه؛ لِمَا رأيته وعلمته يقيناً من اتخاذ العباد الأنداد في الأمصار والقرى وجميع البلاد، من اليمن والشام ومصر ونجد وتهامة وجميع ديار الإسلام.

وهو الاعتقاد في القبور وفي الأحياء مِمَّن يدَّعي العلم بالمغيَّبات والمكاشفات، وهو من أهل الفجور، لا يَحضر للمسلمين مسجداً، ولا يُرَى لله راكعاً ولا ساجداً، ولا يَعرف السنَّةَ ولا الكتاب، ولا يَهاب البعثَ ولا الحساب.

فوجب عليَّ أن أنكر ما أوجب الله إنكارَه، ولا أكون من الذين يكتمون ما أوجب الله إظهاره[١].

---

[١] **قال**: «وبعد» أي: وبعد الخطبة.

قال: «فهذا»: إشارة إلى الرسالة التي كونها في ذهنه قبل أن يكتبها، التي سماها: «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد».

والطهارة نوعان: معنوية وحسية، والمراد بها هنا الطهارة المعنوية.

والأدران: وسخ الإلحاد من الشرك والمعاصي والبدع.

المؤلف يقول: «وجب علي تأليفه»؛ لأنه فيه إنكار للمنكر. وأعظم المنكر هو الشرك؛ لأن الشرك انتشر في جميع البلدان والأمصار كاليمن والشام ومصر ونجد وتهامة وغيرها فلما انتشر الشرك رأى المؤلف أن الإنكار واجب عليه، والمنكر يجب إنكاره على كل من علم به حتى يزول المنكر.

فإنكار المنكر فرض كفاية، فهو فرض على الأمة، فإذا قام به البعض وارتفع المنكر، ارتفع الإثم عن الباقين، وإن سكتوا كلهم أثموا، قال تعالى: =

....

= ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَلْتَكُن﴾ أمر؛ أي: تكن أمة، طائفة من الأمة الإسلامية تقوم بهذا الأمر العظيم. ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ فهذه الآية دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الأمة كلها، واجب كفاية؛ فالواجب إما أن يكون على الأعيان أو واجب على الكفاية.

فالواجب على الأعيان: يجب على كل شخص بعينه، مثل الصلوات الخمس.

والواجب على الكفاية: فرض على الأمة كلها، فإذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، مثل: صلاة الجنازة، ومثل: تغسيل الميت، والصلاة على الميت. يجب على الأمة أن يصلوا على هذا الميت، فلو تركوا الميت ولم يصلوا عليه أثموا بالترك، وإذا صلى واحد أو اثنان أو ثلاثة ارتفع الإثم عن الباقين، ويجب على الأمة أن تغسل الميت، فإذا تركوا الميت ولم يغسلوه أثموا كلهم، وإن غسله بعضهم ارتفع الإثم، وكذلك تكفينه ودفنه، هذه فروض الكفاية، ومثله إنكار المنكر، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: **وجب علي تأليف** هذا الكتاب لإنكار المنكر.

وأعظم المنكرات الشرك بالله فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يرى أنه واجب عليه إما لأنه لم يزل المنكر أو أن بعض المنكرات لم تنكر فلو قام به غيره لم يكن واجباً عليه بل يكون مستحباً، فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ رأى أنه لم يقم أحد بإنكار هذا المنكر.

يقول المؤلف: «لما رأيته وعلمته» رأى هذا المنكر وعلمه وتحقق منه وشاهده بعينه وتحقق من وجوده في مصر والشام.

والمنكر الذي رآه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هو الاعتقاد في القبور؛ أي: الاعتقاد في أصحاب القبور، فبعض الناس يعتقدون في صاحب القبر بأنه يكشف البلاء، أو أنه ينصر على الأعداء، أو يستنزل غيث السماء، أو له قدرة على تفريج الكربات =

....

= وقضاء الحاجات، أو أنه يشفع عند الله، كحال كثير من الذين يطوفون على القبور وينذرون لها، ويذبحون لها، ويدعونها من دون الله، فهذا أعظم منكر.

وتأليف هذه الرسالة لبيان الحق ورد الباطل، بيان الحق وفيه وجوب توحيد الله جل وعلا وإفراده بالعبادة، وإنكار الشرك وفيه الاعتقاد في القبور، وهذا بالنسبة للأموات، وكذلك من المنكرات الشرك في الأحياء ممن يدعي العلم بالمغيبات والمكاشفات وهم الصوفية، فالصوفية يدعون أنها تكشف عنهم الحجب، وأنهم يعلمون المغيبات، فهؤلاء مشركون؛ فمن ادعى علم الغيب هو مشرك؛ لأن علم الغيب من خصائص الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

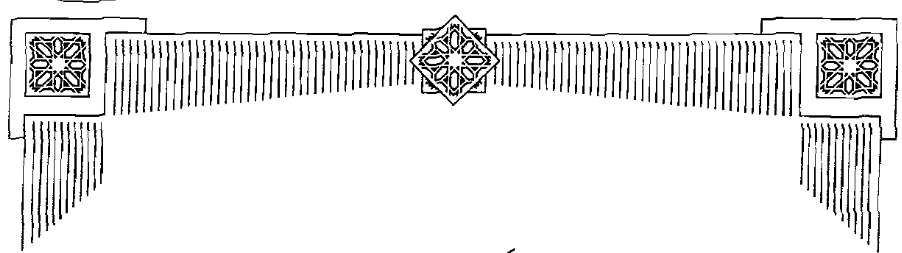
فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الشرك منتشر في الأموات وفي الأحياء.

أما الشرك الذي في الأموات فهو الاعتقاد في القبور، الاعتقاد بأنه يجوز أن تصرف لهم العبادة بدعوى أنهم يشفعون عند الله ويقضون الحوائج.

والشرك في الأحياء، كالصوفية الذين يدعون المغيبات والمكاشفات، ويدعون أنهم أولياء، وهم من أهل الفجور الذين لا يحضرون للمسلمين مسجداً، ولا يرى منهم لله راكعاً ولا ساجداً، ولا يعرف السنة ولا الكتاب، ولا يهابون البعث ولا الحساب، فهم كفار ملاحدة.

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما وجد هذا المنكر **قال**: «وجب علي أن أنكر ما أوجب الله إنكاره، ولا أكون من الذين يكتمون ما أوجب الله إظهاره».

فقد توعد الله الكاتمين بوعيد شديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].



فاعلم أنَّ ههنا أصولاً هي من قواعد الدِّين، ومِن أهم ما تجب معرفته على الموحِّدين:

الأصل الأول

أنَّه قد عُلم من ضرورة الدِّين أنَّ كلَّ ما في القرآن فهو حقٌّ لا باطل، وصِدْقٌ لا كذب، وهدى لا ضلالة، وعلمٌ لا جهالة، ويقين لا شك فيه.

فهذا الأصل أصلٌ لا يتمُّ إسلامُ أحد ولا إيمانه إلَّا بالإقرار به، وهذا مُجمعٌ عليه لا خلاف فيه[١].

---

[١] ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قواعدَ سماها أصولاً، وقال: إنها من أهم ما يجب على الموحد أن يعرفه، أن يعرف هذه الأصول والقواعد. فيجب معرفتها والعلم بها واعتقادها؛ لأنها أمر مجمع عليه متفق عليه بين أهل العلم، ومعلومة من الدين بالضرورة، ولا خلاف فيها، ومن لم يؤمن بها فإن في إيمانه خلل ونقص، وقد يكفر إذا قامت عليه الحجة وليس له عذر.

الأصل الأول: يقول المؤلف: «الأصل الأول»، كل ما في القرآن حق. وهذا معلوم من الدين بالضرورة، كل مسلم يعتقد هذا الاعتقاد، فمن اعتقد خلاف ذلك، اعتقد أن القرآن باطلاً، فهذا مرتد عن الإسلام بإجماع المسلمين.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩] =

....

= فهذا دليل على أن القرآن كله حق، فمن اعتقد أن القرآن فيه باطل، أو نقص، أو تحريف، أو يمكن أن يزاد فيه أو ينقص، فقد كذب الله تعالى في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

فالله تعالى تكفل بحفظه، فالقرآن هو الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

ولهذا **قال المؤلف**: رَحِمَهُ ٱللَّهُ «إنه قد علم من ضرورة الدين أن كل ما في القرآن حق لا باطل، وصدق لا كذب، وهدى لا ضلالة، وعلم لا جهالة ويقين لا شك فيه».

قوله: «فهذا الأصل أصل لا يتم إسلام أحد ولا إيمانه إلا بالإقرار به، هذا مجمع عليه لا خلاف فيه»، فهذا كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمن اعتقد أن القرآن فيه غير الحق، أو أنه يدخله التحريف أو الزيادة أو النقصان، فليس بمؤمن، بل هو خارج عن دائرة الإسلام.



الأصل الثاني

أنَّ رسلَ الله وأنبياءه ـ من أوَّلهم إلى آخرهم. بُعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، فكلُّ رسول أوَّل ما يَقرَع به أسماعَ قومِه قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود: ٢]، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾ [نوح: ٣] وهذا هو الذي تضمنَّه قول: (لا إله إلَّا الله).

فإنَّما دَعَت الرسلُ أممَها إلى قول هذه الكلمة واعتقاد معناها، لا مجرَّد قولها باللسان، ومعناها: هو إفراد الله بالإلٰهية والعبادة، والنفي لِما يُعبد من دونه والبراءة منه، وهذا الأصل لا مرية فيما تضمَّنه، ولا شكَّ فيه، وفي أنَّه لا يتم إيمانُ أحد حتى يعلمه ويحققه[١].

---

[١] **الأصل الثاني**: أن الرسل بعثوا للدعوة، إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، هذا أصل مجمع عليه، والنصوص في هذا واضحة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] وكل رسول بعثه الله يدعو قومه لتوحيد العبادة، كما أخبر الله تعالى عن نوح وهود وصالح وشعيب قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال =

= تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فكل رسول بعثه الله يدعو إلى توحيد العبادة، أما توحيد الربوبية هذا أمر فطري أقر به جميع طوائف الأمم إلا من شذ، ولا عبرة بمن شذ، مثل الدهريون الذين يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ومثل الشيوعيين الملاحدة الذي يقولون: لا إله والحياة مادة. ومثل الطبائعيين الذي يؤمنون بالطبيعة، ومن يقول بالصدفة، هؤلاء شذوا من المجموعة البشرية، وإلا فمجموع طوائف بني آدم كلهم مقرون بتوحيد الربوبية، والنزاع بين الرسل وأممهم في توحيد العبادة والألوهية.

ولهذا **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: «إن رسل الله وأنبياءه من أولهم إلى آخرهم بعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، وكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢]، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ٣]».

يقول المؤلف: «وهذا الذي تضمنه قول لا إله إلا الله».

هذه الكلمة العظيمة التي لأجلها خلق الله الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب، هي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، ولأجلها قام الجهاد، وخلقت الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، دعت الرسل أممها إلى قول هذه الكلمة واعتقاد معناها والعمل بمقتضاها والبعد عما يناقضها لا مجرد قولها باللسان، ومعناها: هو إفراد الله بالعبادة والبراءة من الشرك وأهله، وكفار قريش يعرفون معناها؛ ولهذا امتنعوا من قولها، لا يقولها أحد حتى يسلم ويعبد الله؛ لأنه يعرف معناها.

فلما قال النبي ﷺ لكفار قريش: «**أطلب منكم كلمة، إذا قلتوها ملكتم** =

....

= **بها العرب ودنت لكم بها العجم» فقال أبو جهل: ما هي هذه الكلمة؟ لنعطينكها وعشرة أمثالها! فقال النبي ﷺ: تقولون: لا إله إلا الله»** فرفض ونكص على عقبيه، وجعل ينفض يديه ويقول: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥][١].

فرفض أن يقولها؛ لأنه يعرف معناها، لكن عباد القبور الآن يقولونها وهم يطوفون حول القبور؛ ويدعونهم من دون الله ويذبحون لهم وينذرون لهم لأنهم لا يعرفون معناها، فيقولون: لا إله إلا الله، وهو ينقضونها بأفعالهم حتى إن بعض الناس يطوفون على الكعبة وهم يقولون: يا رسول الله، يا رسول الله حيث إنهم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله.

لذلك يقول الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: فلا خير في رجلٍ كفارُ قريشٍ أعرفُ منه بمعنى لا إله إلا الله[٢].

ولذا **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما دعت الرسل أممها إلى قول هذه الكلمة واعتقاد معناها، لا مجرد قولها باللسان، ومعناها»؛ أي: معنى لا إله إلا الله هو إفراد الله بالإلهية والعبادة، والنفي لما يعبد من دونه والبراءة منه.

يعني: أنها تشتمل على شيئين: النفي في قولك: (لا إله)، والإثبات في قولك: (إلا الله). (لا إله) هذا الكفر بالطاغوت، والبراءة من كل معبود سوى الله، (إلا الله): إثبات العبادة بأنواعها لله، فكلمة التوحيد مشتملة على كفر بالطاغوت وإيمان بالله.

وهذا الأصل لا مرية فيما تضمنه ولا شك فيه، وفي أنه لا يتم إيمان أحد حتى يعلمه ويحققه.

لأن هذا معلوم من الدين بالضرورة؛ لأن أصل الدين الشهادة لله تعالى

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٢٧)؛ والترمذي (٣٢٣٢) وقال: حديث حسن وفي الإسناد يحيى بن عمارة وهو مجهول.

(٢) كشف الشبهات ص(٧).

....

بالوحدانية والشهادة لنبيه ﷺ بالرسالة فلا إسلام ولا إيمان إلا بهما وهما مفتاح الإسلام لا يدخل أحد الإسلام إلا بهما وهما مفتاح الجنة حيث قال ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[1].

(١) رواه أبو داود في سننه (٣١١٦).



الأصل الثالث

أنَّ التوحيد قسمان:

القسم الأول:

توحيد الربوبية والخالقية والرَّازقية ونحوها، ومعناه: أنَّ الله وحده هو الخالق للعالَم، وهو الرَّبُّ لهم والرازق لهم، وهذا لا ينكره المشركون ولا يجعلون لله فيه شريكاً، بل هم مُقرُّون به، كما سيأتي في الأصل الرابع.

والقسم الثاني:

توحيد العبادة، ومعناه: إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات الآتي بيانها، فهذا هو الذي جعلوا لله فيه شركاء، ولفظ الشريك يُشعر بالإقرار بالله تعالى[١].

---

[١] هذا الأصل الثالث من الأصول التي بينها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: إن هذه الأصول هي من قواعد الدين، ومن أهم ما يجب معرفته على الموحدين.

التوحيد ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: توحيد الربوبية وهو الإقرار بوجود الله وأسمائه وصفاته، وأفعاله كالخلق والرزق والإماتة والإحياء، وإنزال المطر، وهو توحيد الله بأفعاله وذلك بأن تعتقد أن الله هو الخالق الرازق المالك المحيي =

....

= المميت، المدبر للأمور، وتعتقد بأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى، ويقال لهذا التوحيد: التوحيد العلمي، والتوحيد الخبري والتوحيد الاعتقادي؛ لأن الله أخبر بذلك.

القسم الثاني: توحيد العبادة، وهو توحيد الله بأفعالك أنت أيها العبد، مثل: صلاتك وصومك وزكاتك وحجك ودعائك ونذرك وذبحك وخوفك، ورجائك وتوكلك؛ أي: بالعبادات التي تتقرب بها أنت إلى الله جل وعلا.

وتوحيد الله فيها يكون بصرفها إلى الله ﷻ دون غيره والعبادة لا تصح إلا بشرطين:

الأول: أن تكون خالصة لله جل وعلا مرادا بها وجه الله والدار الآخرة.

الثاني: أن تكون هذه العبادة موافقة للشرع.

وتقسيم التوحيد إلى قسمين درج عليه العلماء السابقون كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ـ رحمهما الله ـ ولما كثر النزاع وأثيرت الشبه حول الأسماء والصفات جعل العلماء توحيد الأسماء والصفات قسماً ثالثاً فقسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الأسماء والصفات، جعله العلماء لتوحيد الأسماء والصفات.

الثالث: توحيد الألوهية.

وإلا فالأصل أن توحيد الأسماء والصفات داخل في توحيد الربوبية فهو توحيد واحد وهو الإيمان بوجود الله وأنه الرب الخالق المالك المدبر، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام وابن القيم في التدمرية، والتوحيد الثاني توحيد الألوهية.

ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: الأصل الثالث أن التوحيد قسمان:

الأول: توحيد الربوبية؛ أي: توحيد الله بأفعاله، والخالقية؛ أي: تعتقد أن الله هو الخالق كما قال الله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧] =

....

= وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

فهم مُقِرون بهذا التوحيد ولم ينكروه؛ لأنه أمر فطري، فطر الله عليه جميع طوائف بني آدم إلا من شذ كما سبق، ففسدت فطرتهم وعميت بصيرتهم، فأشركوا بتوحيد الربوبية مثل الدهريين الذين قالوا: إن هذا العالم ليس له مدبر وإنما يسير بنفسه ويدبر نفسه، ويقولون ـ ما حكى الله عنهم ـ أنهم قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ومنهم الشيوعيون الملاحدة الذين قالوا: لا إله والحياة مادة، وكذلك الطبائعيون الذين يقولون بالطبيعة، أن ذات الأرض خلقت الأرض وذات السماء خلقت السماء، وذات النبات خلقت النبات، وكذلك من يقول بالصدفة أن العالم جاء بالصدفة فهؤلاء شذو عن المجموعة البشرية، وإلا فإن طوائف بني آدم كلهم مجمعون على الإقرار بهذا التوحيد والاعتراف به، وليس في هذا التوحيد نزاع بين الرسل والأمم.

ولهذا أخبر الله عن قوم صالح الكفار الذين تآمروا على قتل نبي الله صالح أنهم مقرون بالله أخبر الله أنهم مقرون بالله: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فهم =

= تقاسموا بالله، يريدون قتله وهم مقرون به.

أما القسم الثاني: فهو توحيد العبادة:

والعبادة معناها: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فهي فعل كل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، فالذي أمر الله به يفعله المسلم تعبداً لله سواء كان أمر إيجاب أو أمر استحباب، وكل ما نهى الله عنه فإن المسلم يجتنبه سواء أكان نهي تحريم أو نهي تنزيه.

وقال بعضهم: العبادة كل ما أمر به شرعاً من غير اضطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي. والتعريف الأول لشيخ الإسلام رحمه الله(1)؛ العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فهي تشمل كل ما يحبه الله قولاً أو عملاً أو نية ظاهراً أو باطناً، هذه هي العبادة.

هذه العبادات تصرفها لله ولا تجعل مع الله شريكاً وهذا هو الذي وقعت فيه الخصومة بين الأنبياء وأممهم وهو الذي وقعت فيه المعركة والقتال والنزاع والعداوات والحروب الطاحنة بين الأنبياء وأممهم.

فالرسل تأمرهم بأن يخلصوا الطاعة لله عز وجل، وهم يعصونهم ويقولون: نفعل الطاعة لغير الله، حتى إنهم قالوا لنبينا محمد ﷺ: اعبد إلهنا عاماً ونعبد إلهك عاماً فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

فهم مع شركهم مقرون بتوحيد الربوبية، واستحل نبينا ﷺ دماءهم وأموالهم بهذا الاعتقاد وبين الله أن قولهم هو الشرك؛ لأنهم يعبدونهم من دون الله ويقولون: إنهم شفعاء عند الله كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. =

---

(1) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

....

= فيعبدون من دون الله الأشجار والأحجار ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ثم حكم عليهم بالشرك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ أي: يعبدون الأشجار والأحجار وغيرها وعبادتهم لهم تكون بالدعاء وبالذبح وبالنذر وبالصلاة وبالطواف كما قال الله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

يقولون: نحن نعلم أنهم لا يخلقون ولا يرزقون ولا ينفعون ولا يضرون بل الذي يخلق ويرزق وينفع ويضر هو الله. ولكن ندعوهم لأنهم أنبياء وصالحون؛ ولأن هذه الأشجار والأحجار تسبح الله، فهي أقرب منا عند الله فتشفع لنا، فكفَّرهم الله بذلك فصاروا مشركين بهذا الاعتقاد وحكم الله عليهم بالكفر والكذب فأكذبهم في قوله تعالى أنها تقربهم إلى الله فهي لا تقربهم بل تبعدهم وحكم عليهم بالكفر فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

هذا معنى **قول المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القسم الثاني: توحيد العبادة»، ومعناه: إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات.

فالخصومة والنزاع والحروب بين الأنبياء وبين الرسل بسبب توحيد العبادة أما توحيد الربوبية فليس فيه نزاع، والقرآن الكريم يحتج عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية، ويبين لهم أنهم يقرون بتوحيد الربوبية فما دمتم مقرين بتوحيد الربوبية فعليكم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً.

إذن فاعبدوا الله ما دمتم تعتقدون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت فالذي يتصف بهذه الصفاتُ الذي هذه أفعاله هو المستحق للعبادة، وغيره لا يستحق العبادة قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ثم جاء بالدليل فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ =

....

= [البقرة: ٢١، ٢٢] فالذي هذا وَصْفُه الخالق لكم ولمن قبلكم والذي جعل لكم الأرض فراشاً وخلق السماوات وجعلها بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم هو المستحق للعبادة، وما دمتم تعترفون بذلك إذن أخلصوا له العبادة، واحتج عليهم ﷻ بإقرارهم بتوحيد الربوبية على وجوب إفراده بالعبادة وإخلاص العبادة لله.

فالرسل عليهم السلام بُعثوا لتقرير الأول ودعاء المشركين إلى الثاني، مثل قولهم في خطاب المشركين: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣]، ونهيهم عن شرك العبادة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ أي: قائلين لأمَمهم أنِ اعبدوا الله، فأفاد بقوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أنَّ جميع الأمم لم تُرسل إليهم الرسل وتُبعث إلَّا لطلب توحيد العبادة، لا للتعريف بأنَّ الله هو الخالق للعالَم، وأنَّه ربُّ السمٰوات والأرض، فإنَّهم مقرُّون بهذا.

ولهذا لم ترد الآيات فيه ـ في الغالب ـ إلَّا بصيغة استفهام التقرير، نحو: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ﴾ [فاطر: ٣]؟ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]؟ ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؟ ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠]؟ استفهام تقرير لهم لأنهم به مقرُّون[١].

---

[١] **يقول المؤلف** رحمه الله: «فالرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا لتقرير الأول»، الأول الذي هو توحيد الربوبية هو القسم الأول بعثوا لتقرير الأول، ودعاء المشركين إلى الثاني الذي هو توحيد العبادة، فالرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا لتقرير الأول؛ يعني: يقرون الناس على توحيد الله في الربوبية؛ لأن هذا حق توحيد الربوبية، حق يجب على كل إنسان أن يوحد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته وفي ألوهيته وعبادته فالرسل عليهم الصلاة والسلام أقروا الناس على توحيد الألوهية وقالوا: إقراركم بتوحيد الربوبية هذا حق لكن =

....

= بقي عليكم أن تقروا بتوحيد الألوهية والعبادة، وتخلصوا العبادة لله كما أقررتم بتوحيد الربوبية أقروا بتوحيد الألوهية.

فالرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا لتقرير الأول الذي هو توحيد الربوبية يعني يقولون: نقركم على توحيدكم لله في الربوبية، فهذا حق، لكن لا يكفي للدخول في الإسلام حتى توحدوا الله في الألوهية؛ ولهذا دعوا المشركين إلى الثاني الذي هو توحيد الألوهية، ومثل المؤلف قوله في خطاب المشركين: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣]؛ بمعنىٰ: فأنتم لا تشكون في أن الله فاطر السماوات والأرض، كما جاء في الآية.

إذن أقروا بتوحيد الإلهية والعبادة أفْرِدوا الله بالعبادة فهو يدعوكم سبحانه ليغفر لكم من ذنوبكم ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هم معترفون أنه ليس هناك خالق غير الله قال سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ بمعنىٰ: أن لا معبود بحق إلا هو، إذن اعبدوه ما دمتم تعترفون بأنه ليس هناك خالق غير الله، إذن أفردوه بالعبادة.

«ونهيهم عن شرك العبادة»: الرسل بعثوا للنهي عن الشرك في العبادة والعبادة كما سبق: جميع ما جاء في الشرع من الأوامر والنواهي، يفعل المسلم الأوامر ويترك النواهي تعبداً لله هذه هي العبادة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

بيّن الله ﷻ أنه بعث في كل أمة رسولاً، هذا الرسول يأمر الناس بأن يعبدوا الله؛ يعني: يوحدوه ويخلصوا له العبادة ويجتنبوا الطاغوت؛ الطاغوت كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، طاغوت فعلوت صيغة مبالغة، وهو كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو مطاع أو معبود، كل معبود أو متبوع أو مطاع وهو راضٍ بذلك، فالذي يدعو الناس إلى عبادة نفسه طاغوت؛ لأنه تجاوز حده، إذ حده أن يكون عبداً لله وفي مقدمة =

....

=هؤلاء فرعون الذي ادعى الربوبية وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] فهو طاغوت من رؤوس الطواغيت، وإبليس طاغوت دعا إلى الشرك، ومن رضي أن يعبده الناس فهو طاغوت لأنه تجاوز حده، ومَنْ حكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت، إذ حد العبد أن يكون عبداً لله ذليلاً خاضعاً ممتثلاً لأمر الله مجتنباً لنهيه هذا حده، فحدك أن تعبد الله، فأنت عبد لله فإذا تجاوز الإنسان حده صار طاغوتاً، حدك أن تعبد الله وأن توحد الله وأن تدعو إلى عبادته.

فإذا خرج الإنسان عن هذا الحد وتمرد على الله وعلى رسله وأنبيائه ودعا الناس إلى عبادة نفسه أو رضي بأن يعبد، أو أمر بمعصية الله، أو حكم بغير ما أنزل الله، أو دعا الناس إلى الشرك والوثنية صار طاغوتاً، تجاوز حده؛ لأن حد الإنسان أن يكون عبداً لله فإذا تجاوز هذا الحد صار طاغوتاً، فالرسل عليهم السلام، بعث الله في كل أمة منهم رسولاً يأمرونهم بعبادة الله واجتناب الطاغوت.

يقول المؤلف: «أي قائلين لأممهم: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾»؛ يعني: هذا تقرير ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ قائلين لأممهم: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يقول المؤلف: فأفاد بقوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٖ﴾ أن جميع الأمم لم ترسل إليهم الرسل إلا لطلب توحيد العبادة، إذن الرسل أرسلت تطلب من الناس أن يوحدوا الله بالعبادة ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ لا للتعريف بأن الله هو الخالق للعالم، وأنه رب السماوات والأرض، فإنهم مُقرون بهذا إذن الرسل ما بعثت لتعرف الناس بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت؛ لأنهم مقرون بهذا، إنما بعثوا بأمر الناس بعبادة الله والإخلاص في العبادة لله، تطلب من الناس أن يوحدوا الله في العبادة والألوهية، تطلب من الناس أن يوحدوا الله بأفعالهم بدعائهم وذبحهم وصلاتهم وحجهم بأن يصرفوها لله لا لغيره. =

....

= هذا هو الذي بعث به الرسل ما بعثت الرسل لتقول: نعرفكم بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي الميت؛ لأنهم مقرون بهذا، يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: ولهذا لم ترد الآيات فيه في الغالب إلا بصيغة التقرير، الآيات لم ترد في توحيد الربوبية إلا بصيغة التقرير؛ يعني: تقرر الناس على ما يعتقدون، ومَثّل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ نحو قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] (هل) استفهام يفيد التقرير؛ يعني: أنتم تقرون بهذا، ألستم تقرون بهذا؟ ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ فيقولون: لا ليس خالق غير الله، فيقول لهم: إذن عليكم أن تعبدوا الله إذن لا معبود بحق إلا الله، كما أنكم تقولون: لا خالق إلا الله فيجب عليكم أن تعتقدوا أنه لا إله غير الله ولا معبود بحق غيره هذا استفهام تقريري.

المثال الثاني: الآية الثانية ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] هذا صيغة استفهام تقريري يخاطب الله المشركين بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ ألا تعتبرون أنتم تعتقدوا أن الله هو الخالق والأصنام ليست خالقة تسوون بين الخالق وغير الخالق ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ هل يستويان لا يستويان فالذي يخلق هو الذي يستحق العبادة، والذي لا يخلق لا يستحق العبادة إذن هذا احتجاج على المشركين، احتجاج يحتج الله على المشركين كما أنكم تعتقدون بأن الله هو الخالق اعبدوه والأصنام ليست خالقة إذن لا تستحق العبادة، لا تسوون بين الخالق وغير الخالق ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ وفي الآية الثالثة **المثال الثالث** قال: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] هم يقولون: ليس هناك شك بأن الله فاطر السماوات والأرض إذن اعبدوا الله ما دام أنتم لا تشكون بأن الله فاطر السماوات والأرض، إذن عليكم أن تعبدوه فهو المستحق للعبادة فاطر السماوات والأرض.

الآية الرابعة: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] تقرير إذاً اعبدوه، الآية الخامسة: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ هذا خلق الله السماوات والأراضين والآدميين والملائكة =

....

=والبشر والنبات والأشجار والأحجار وغيرها كلها خَلْقُ الله والنجوم والكواكب فهذا خَلْقُ الله أروني ماذا خلق الذين من دونه، هؤلاء الأصنام أروني ماذا خلقوا، هم لا يخلقون إذن لا يستحقون العبادة، وفي الآية التي بعدها ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠]؛ يعني: هؤلاء المعبودون؛ يعني: الأصنام والأوثان والأشجار والأحجار ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠] هل خلقوا شيئاً من الأرض؟ أم لهم شرك في السماوات هل هم شركاء لله في السماوات؟ لا. إذن لا يستحقون العبادة، يقول المؤلف: استفهام تقرير لهم؛ لأنهم به مقرون؛ أي: حتى يُلزمهم بتوحيد العبادة والألوهية يُلزمهم بما يقرون به على الالتزام بما ينكرونه وهو توحيد العبادة.

وبهذا تعرف أنَّ المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان ولم يعبدوها، ولم يتخذوا المسيح وأمَّه، ولم يتخذوا الملائكة شركاءَ لله تعالى، لأجل أنَّهم أشركوهم في خلق السمٰوات والأرض، وفي خلق أنفسهم؛ بل اتخذوهم لأنَّهم يقرِّبونهم إلى الله زلفى، كما قالوه، فهم مقرُّون بالله في نفس كلمات كفرهم، وأنَّهم شفعاء عند الله، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، فجعل الله تعالى اتخاذهم للشفعاء شركاً، ونزَّه نفسَه عنه؛ لأنَّه لا يشفع عنده أحدٌ إلَّا بإذنه، فكيف يُثبتون شفعاءَ لهم لَم يأذن الله لهم في شفاعة، ولا هم أهل لها، ولا يغنون عنهم من الله شيئاً؟![١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «وبهذا تعرف أن المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان ولم يعبدوها ولم يتخذوا المسيح وأمه ولم يتخذوا الملائكة شركاء لله تعالى؛ لأنهم أشركوهم في خلق السماوات والأرض بل اتخذوهم ليقربوهم إلى الله زلفى» كما أخبر الله في أول سورة الزمر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] بل يعتقدون أنهم لا يخلقون ولا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون ولا ينفعون ولا يضرون لكن يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فأكذبهم الله فجعلهم كفاراً بهذا العمل قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] وفي الآية الأخرى التي ذكرها المصنف أخبر بأنهم فعلوا ذلك يرجون شفاعتهم حتى يشفعوا لهم عند الله قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس] وحكم عليهم بالشرك؛ لأنه لا يشفع =

....

=عنده أحد إلا بإذنه، وهو سبحانه لا يأذن أن يكون له شريك في العبادة، والشفاعة لا بدّ فيها من شرطين:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له.

والله لا يأذن لأحد يكون شريكاً له في العبادة ولا يرضى عن المشركين، فالله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، والمشرك ليس موحداً فلا يرضى الله عمله، ولا يمكن أن يشفع فيه، أحد وهو سبحانه لا يأذن إلا لمن كان له مكانة عنده يأذن له بالشفاعة كالرسل والأنبياء والصالحين يوم القيامة لكن لا يشفعون إلا فيمن رضي الله قوله وعمله وهم الموحدون.

وثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أنه سأل النبي ﷺ قال: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله خالصة من قلبه**»[1] فأسعد الناس بالشفاعة أهل التوحيد، أما المشركون فليس لهم نصيب في الشفاعة قال ﷻ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٣].

يقول المؤلف: «فجعل الله تعالى اتخاذهم للشفعاء شركاً ونزه نفسه عنه؛ لأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فكيف يثبتون شفعاء لهم لم يأذن الله لهم في شفاعة، ولا هم أهل لها لا يغنون عنهم من الله شيئاً» نعم؛ لأن الأصنام والأشجار والأحجار لا يأذن الله لهم بالشفاعة وليسوا أهلاً لها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٠).



الأصل الرابع

أنَّ المشركين الذين بعث اللهُ الرسلَ إليهم مقرُّون أنَّ الله خالقُهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وأنَّه هو الذي خلق السموات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، وأنَّه الرزَّاق الذي يُخرج الحيَّ من الميِّت ويُخرج الميِّتَ من الحي، وأنَّه الذي يُدبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرض، وأنَّه الذي يَملك السمعَ والأبصار والأفئدة، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

وهذا فرعونُ مع غلُوِّه في كفره ودعواه أقبح دعوى ونطقه بالكلمة الشنعاء، يقول الله في حقِّه حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال إبليس: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وقال:

﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ [الحجر: ٣٦]، وكلُّ مشرك مُقر بأنَّ الله خالقُه وخالق السمٰوات والأرض وربُّهن وربُّ ما فيهنَّ ورازقُهم، ولهذا احتجَّ عليهم الرسل بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، وبقولهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، والمشركون مقرُّون بذلك ولا ينكرونه[١].

---

[١] **فهذا الأصل الرابع**: المشركون مقرون بأن الله خالقهم وهذا سبق في الأصل الثالث أن التوحيد قسمان: توحيد الربوبية، وهذا أقرّ به المشركون وتوحيد الألوهية، وهذا أنكره المشركون فالمؤلف جعله أصلاً مستقلاً وهو جزء من الأصل الثالث؛ لأن الأصل الثالث قال: إن التوحيد قسمان: توحيد الربوبية وهذا أقرّ به المشركون وتوحيد الألوهية وهذا أنكره المشركون، هذا الأصل الرابع: أن المشركين مقرون بأن الله خالقهم، ومقرون بأن الله خالق السماوات والأرض، وبأنه هو الرازق وبأنه هو المحيي وبأنه المدبر وبأنه المصرف للأمور مُقرون بأفعال الرب كلها، ومن ذلك أن الله خالقهم هذا أقر به المشركون، وهذا أمر معلوم من النصوص، ولا إشكال فيه لأن المشركين مقرون بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض وخالق الخلق جميعاً وأيضاً مقرون بأن الله هو الرازق، وبأنه هو المدبر، وبأنه هو المحيي، وبأنه هو المميت وبجميع أفعال الرب.

يقول المؤلف: «إن المشركين الذين بعث الله الرسل إليهم مقرون أن الله خالقهم» ثم استشهد بالآية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض؛ يعني: مقرون بهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩] وأقروا، أنه الرزاق؛ يعني: مقرون بأن الله هو الرزاق وأنه الذي يخرج الحي من المميت ويخرج الميت من الحي وأنه الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وأنه الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة كل هذا =

....

= واضح في الآيات الكريمة ثم استشهد بالآيات ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣١] ما الجواب قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

المعنى: ما دمتم تعترفون بهذه الأمور أفلا تتقون الله وتعبدونه وتخلصون له العبادة وتتقون ناره وغضبه وسخطه بترك الشرك، ثم ذكر الآيات الأخرى ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ المعنى ما دمتم معترفون تذكروا واعتبروا وأخلصوا العبادة لله ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أعترفوا فقال: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تتقون غضب الله وسخطه وناره وتحذرون الشرك وتخلصوا له العبادة ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أقروا فقال: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩] كيف تصرفون أين ذهبت عقولكم فعبدتم معه غيره وأنتم معترفون بذلك.

يقول المؤلف: «وهذا فرعون مع غلوه في كفره ودعواه أقبح دعوى ونطقه بالكلمة الشنعاء» الكلمة الشنعاء» التي قال الله عنها أنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ هذه هي الكلمة الشنعاء ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

«يقول الله تعالى في حقه حاكياً عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]»؛ يعني: يقول لفرعون مع غلوه في كفره، مع أنه إمام في الكفر ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] فهناك أئمة في الكفر، ومنهم فرعون وهناك أئمة في التوحيد وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فهم أئمة للمؤمنين أخبر الله عن موسى أنه قال له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ والعلم معرفة القلب واليقين ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾.

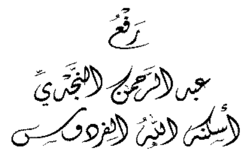
إذاً ففرعون يعلم ويعتقد في قرارة نفسه أن الله رب السماوات والأرض لكنه جحد الحق قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ =

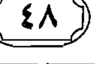
....

= [النمل: ١٤] جحدوا بها وقلوبهم متيقنة، ففرعون يعلم ويقر بأن الله رب السماوات والأرض؛ لأن موسى قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ ومع ذلك ما نفعه هذا العلم، وهذا الإقرار لما عاند وكفر ولم ينقد إلى شرع الله ودينه واتباع رسوله فكان كافراً، ولم ينفعه علمه وإقراره بتوحيد الربوبية فلا بدّ من الانقياد والاتباع والتوحيد لله في العبادة.

وكذلك إبليس، إمام كل كافر، وإمام كل شر وفتنة، وإمام كل قائد إلى النار، معترف بوجود الله ومقر به ولا ينكره، بل يوحد الله في ربوبيته، قال الله تعالى عنه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١٧] فإبليس مقر بتوحيد الربوبية لكن لا ينفعه هذا، ولا يخرجه من الكفر حتى يعبد الله ويخلص له العبادة وقال عنه في الآية الأخرى: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ اعترف بربوبيته الله.

قال المؤلف: «وكل مشرك مقر بأن الله خالقه وخالق السماوات والأرض وربهن ورب ما فيهما ورازقهم ولهذا احتج عليهم الرسل بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]» الذي يخلق هو الذي يستحق العبادة والذي لا يخلق لا يستحق العبادة، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] وكل من عبدتم من دون الله لن تقدر مجتمعة على خلق ذبابة واحدة ومع ذلك وقعوا في شرك العبادة، مع أنهم مقرون بأن الله خالقهم لا ينكرونه.







الأصل الخامس

أنَّ العبادة أقصى باب الخضوع والتذلل، ولم تُستعمل إلَّا في الخضوع لله؛ لأنَّه مُولي أعظم النِّعم، وكان لذلك حقيقاً بأقصى غاية الخضوع، كما في «الكشاف» ثمَّ إنَّ رأسَ العبادة وأساسَها التوحيدُ لله الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل، وهي قول: (لا إله إلَّا الله)، والمراد اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها، لا مجرَّد قولها باللسان.

ومعناها: إفراد الله بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كلِّ معبود دونه، وقد علم الكفار هذا المعنى؛ لأنَّهم أهلُ اللسان العربي، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص: ٥][١].

---

[١] **الأصل الخامس**: يقول المؤلف توحيد الله تعالى أساس العبادة لا شك أن أساس العبادة توحيد الله فمن لم يوحد الله فهو كافر وإذا دخل الشرك العبادة أفسدها، فالصلاة عبادة والزكاة عبادة والصوم عبادة، فهذه العبادة لا يصححها إلا التوحيد فإذا دخل الشرك فيها فسدت وبطلت كما أن الصلاة تصححها الطهارة، فهي شرط في صحة الصلاة فإذا فسدت ودخل الحدث بطلت الطهارة، وفسدت العبادة فكذلك الشرك إذا دخل في التوحيد فسدت وبطلت العبادة وفسدت، فتوحيد الله أساس العبادة. وقوله: وإن العبادة بالخضوع والتذلل؛ يعني: المتعبد لله يخضع ويذل والخضوع هو التذلل، فالعبادة لا بدّ فيها من الخضوع والتذلل، ولا بدّ فيها من المحبة، والتذلل =

= والخضوع ركنان لا بدّ منهما بأن يخضع الإنسان، ويذل لله مع محبته وتعظيمه وإجلاله، وإذا انفرد أحدهما فلا يسمى عبادة؛ لأن الإنسان قد يخضع ويذل لسلطان ظالم، ويخضع لعدو لكن لا يحبه وقد يحب شخصاً ولا يخضع له ولا يذل فإذا أحبه وخضع له وذل، فركنا العبادة وصار عابداً له، فهذا كمال المحبة، وكمال الذل والخضوع.

فلا بدّ من هذين الأمرين؛ ولهذا **قال المؤلف**: «إن العبادة بالخضوع والتذلل، ولم تستعمل إلا في الخضوع لله»؛ يعني: مع محبته وإجلاله وتعظيمه والمحبة مستلزمة للخوف والرجاء فالخاضع الذليل هو الخاضع لله الراجي له؛ لأنه مولي أعظم النعم؛ لأن العبادة لا بد منها من: المحبة والخوف والرجاء، المحبة والخوف والرجاء داخل في الخضوع والتذلل، فهذه أركان العبادة ذكرت في أول سورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ هذه محبة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ هذا الرجاء ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ هذه الخوف.

يقول المؤلف: «وكان ذلك حقيقاً بأقصى غاية الخضوع»؛ يعني: الرب ﷻ ثم إن رأس العبادة وأساسها التوحيد لله، توحيد الله هو رأس العبادة وأساسها ولا تصح العبادة إلا بالتوحيد الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل وهي قول: لا إله إلا الله، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله فالإله هو المعبود، و«لا» نافية للجنس تنصب الاسم وترفع الخبر، «إله» اسمها والخبر محذوف تقديره: لا إله بحق إلا الله؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، والمراد بقول المؤلف: والمراد اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها لا مجرد قولها باللسان، أنه لا يكفي النطق باللسان بل لا بدّ أن تعرف معناها وأنها مشتملة على نفي وإثبات؛ «لا إله» هذا نفي، «إلا الله» هذا إثبات والإله هو المعبود، وما الشيء الذي تنفيه وما الشيء الذي تثبته؟ الشيء الذي تنفيه جميع أنواع العبادة منفية عن غير الله والشيء الذي تثبته جميع أنواع العبادة تثبتها لله، و«لا إله» هذا براءة من الشرك وكفر بالطاغوت، «إلا الله». هذا إيمان بالله، ولا بدّ في التوحيد من أمرين: كفر بالطاغوت وإيمان بالله، قال الله تعالى: =

....

= ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وكلمة التوحيد مشتملة على كفر وإيمان، على كفر بالطاغوت وإيمان بالله «لا إله» هذا كفر بالطاغوت «إلا الله» هذا إيمان بالله، لا يتحقق توحيد إلا بأمرين: نفي وإثبات كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ يعني نعبدك ولا نعبد غيرك، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي تساوي معنى لا إله إلا الله؛ لأن تقديم الظرف يفيد الاختصاص، فليس هناك عبادة إلا بأمرين: نفي وإثبات كفر بالطاغوت وإيمان بالله، «فلا إله» هذا البراءة من كل معبود سوى الله وكفر بالطاغوت أياً كان «إلا الله» هذا فيه إثبات العبادة بجميع أنواعها لله.

ولا بدّ من العمل بمقتضاها، مقتضاها أن تلتزم الأوامر وتجتنب النواهي فلا بدّ من أن تعرف معناها، ولا بدّ من الإخلاص المنافي للشرك، ولا بدّ من الصدق المانع من النفاق، ولا بدّ من الانقياد بحقوقها وهي الواجبات، وترك المحرمات وهذا هو العمل بمقتضاها ولا بدّ من القبول لها، القبول المنافي للترك، ولا يكفي مجرد قولها باللسان.

يقول المؤلف: «ومعناها إفراد الله تعالى بالعبادة والإلٰهية كما سبق في النفي والإثبات فالنفي هو البراءة من كل معبود سواه»، والإثبات إفراد الله بالعبادة.

يقول المؤلف: «وقد علم الكفار هذا المعنى؛ لأنهم أهل اللسان العربي فقالوا:» يعني لما أمرهم النبي ﷺ بكلمة التوحيد قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص: ٥] كما سبق أن أبا جهل نفض يديه ونكص على عقبيه وقال: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾.



فصل

إذا عرفتَ هذه الأصول فاعلم أنَّ الله تعالى جعل العبادة له أنواعاً:

اعتقادية: وهي أساسُها، وذلك أن يعتقد أنَّه الربُّ الواحد الأحدُ الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، وأنَّه الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلَّا بإذنه، وأنَّه لا معبود بحق غيره، وغير ذلك من الوازم الإلٰهية.

ومنها **لفظية**: وهي النطق بكلمة التوحيد، فمَن اعتقد ما ذكر ولَم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله، وكان كإبليس، فإنَّه يعتقد التوحيدَ، بل ويُقرُّ به كما أسلفناه عنه، إلَّا أنَّه لم يَمتثل أمرَ الله بالسجود فكفر، ومَن نطق بها ولَم يعتقد حقن ماله ودمه وحسابه على الله، وحكمُه حكم المنافقين.

وبدنية: كالقيام والركوع والسجود في الصلاة، ومنها الصوم وأفعال الحج والطواف.

ومالية: كإخراج جزء من المال امتثالاً لِمَا أمر الله تعالى به، وأنواع الواجبات والمندوبات في الأموال والأبدان والأفعال والأقوال كثيرة، لكن هذه أمهاتها[١].

---

[١] المعنى أن الاعتقاد لا بدّ منه للمسلم، أن يوحد الله في ربوبيته وفي =

....

= ألوهيته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله، فمن لم يفعل هذا فليس بمسلم ومن اعتقد أن أحداً يستحق العبادة غيره فإنه مشرك ولو صلى ولو صام، فلا بدّ أن تعتقد أنه لا معبود بحق إلا الله وتعتقد بأنه يجب إفراد الله بالعبادة بجميع أنواعها.

ومنها اللفظية، العبادة اللفظية التي يتلفظ بها باللسان وأعلاها النطق بكلمة التوحيد بأن ينطق بأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله، فإذا اعتقد شخص أن الله الخالق الرازق المدبر واعتقد بأن الله هو مستحق للعبادة لكن رفض أن ينطق بكلمة التوحيد فلا يكون مسلماً حتى ينطق بالشهادتين، فإذا امتنع قتل إذا كان قادراً على النطق بالشهادة.

فأصل التوحيد أن يشهد الإنسان لله تعالى بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، فمن رفض أن ينطق مع قدرته فإنه يقتل ولا ينفعه اعتقاده في الباطن بأن الله هو مستحق للعبادة.

وقول المؤلف: «كان كإبليس»، فيه نظر؛ لأن إبليس، مقر باللسان ممتنع من عبادته، فقابل إبليس أمر الله بالإباء والاستكبار اعتراضاً على الله، فالله تعالى أمر الملائكة بأن تسجد لآدم فسجدوا لكن إبليس رفض وقال: أنا عنصري النار وعنصر آدم الطين، والنار أحسن من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟

فإبليس أول من قاس قياساً فاسداً قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فلا يصح قياس مع النص فطرد الله إبليس ولعنه وجعله شيطاناً رجيماً فكفر إبليس كفر إباء واستكبار.

والكفر أنواع منها: كفر الجحود فالجاحد كافر، ومنها كفر بالرفض والإباء والاستكبار، مثل كفر إبليس وكفر فرعون وكفر اليهود كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] وكفر أبي طالب عم النبي ﷺ كفر إباء واستكبار: فهو يقول: =

....

= ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة   لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

أخذته الحمية أن يشهد على آبائه وأجداده بالكفر، فكان مستكبراً عن عبادة الله، واتباع رسوله ومنها كفر الشك والظن، ومنها كفر الإعراض ومنها كفر النفاق وهو عكس كفر الإباء والاستكبار.

فكفر الإباء والاستكبار يتكلم وينطق بالشهادتين ولكنه يمتنع عن العمل، والمنافق يعمل ولكنه مكذب في الباطن، مثل المنافقين في عهد النبي ﷺ فإنهم كانوا يصلون ويحجون ويجاهدون مع النبي ﷺ لكنهم كفار في الباطن؛ لأنهم لم يصدقوا بقلوبهم.

ومن العبادات اللفظية: قراءة القرآن والذكر والتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكل هذه العبادات لفظية قولية.

قال المؤلف: «ومن أنواع العبادات: عبادات بدنية»:

مثل القيام والركوع والسجود في الصلاة، ومنها الصوم وأفعال الحج والطواف فكل هذه عبادات بدنية.

ومن أنواع العبادات: «عبادات مالية»:

كإخراج جزء من المال امتثالاً لأمر الله تعالى مثل الزكاة والصدقات والتبرعات في المشاريع الخيرية كل هذه عبادات مالية.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنواع الواجبات والمندوبات في الأموال والأبدان والأفعال والأقوال كثيرة لكن هذه أمهاتها».

وضابطها أي العبادة: أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة.

فكل ما جاء به الشرع من الأوامر والنواهي، يفعل المؤمن الأوامر، سواء كان أمر إيجاب أو أمر استحباب، ويترك النواهي سواء كان النهي نهي تحريم أو نهي تنزيه، وهذا يشمل الأقوال والأفعال والاعتقادات والأعمال والنيات كلها داخلة في ذلك.

وإذا تقرَّرت هذه الأمور، فاعلم أنَّ الله تعالى بعث الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام مِن أولهم إلى آخرهم يَدعون العبادَ إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، لَا إلى إثبات أنَّه خَلَقَهم ونحوه، إذ هم مقرُّون بذلك، كما قرَّرناه وكرَّرناه، ولذا قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٠]، أي: لنفردَه بالعبادة ونخصَّه بها من دون آلهتنا، فلم ينكروا إلَّا طلب الرسل إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا: إنَّه لا يُعبد، بل أقرُّوا بأنَّه يُعبد، وأنكروا كونه يُفردُ بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره، وأشركوا معه سواه، واتخذوا معه أنداداً، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؛ أي: وأنتم تعلمون أنَّه لا ندَّ له، وكانوا يقولون في تلبيتهم للحج: (لبيك لا شريك لك إلَّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك)، وكان يَسمعهم النبيُّ عند قولهم: (لا شريك لك) فيقول: «**قد قد**»؛ أي: أفردوه جلَّ جلاله لو تركوا قولهم: (إلَّا شريكاً هو لك)، فنفس شركهم بالله تعالى إقرار به تعالى.

كما قال تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فنفسُ اتخاذ الشركاء إقرارٌ بالله تعالى، ولم يعبدوا الأندادَ بالخضوع لهم والتقرب بالنذور والنَّحر لهم؛ إلَّا لاعتقادهم أنَّها تقرِّبهم إلى الله زلفى وتشفع لهم لديه.

فأرسل اللهُ الرسلَ تأمرهم بترك عبادة كلِّ ما سواه، وتبيِّنُ أنَّ هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطلٌ، وأنَّ التقرب إليهم

باطل، وأنَّ ذلك لا يكون إلَّا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة، وقد كانوا مقرِّين[١].

[١] خلاصة هذا الكلام أن الرسل بعثهم الله تعالى يدعون الناس إلى توحيد العبادة، وإفراد الله بالعبادة. وأما توحيد الربوبية وهو وإن كان توحيداً مطلوباً لا بدّ منه إلا أنه أمر فطري أقرّ به المشركون فلم ينكروه، ولم يخالفوه فيه فلهذا بُعث الرسل لتوحيد العبادة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وهذا هو الأمر الذي خلق الله الجن والإنس لأجله قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] فتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات وسيلة لتوحيد العبادة، إذا عرفت الله بأسمائه وصفاته وأفعاله فحق واجب حتماً لازم أن يعبد هذا الرب الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعيد هذا ويكرره من أول الكتاب إلى آخره يبين أن الرسل بعثوا لأمر الناس بإفراد الله بالعبادة، ونهيهم عن الشرك، وأن توحيد الربوبية أمر فطري أقرّ به المشركون؛ فلم يدعوا الرسل إليه فهذا خلاصة هذا الرسالة.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا تقررت هذه الأمور فاعلم أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة» كما سبق يدعون الناس إلى أن يفردوا الله بالعبادة، والعبادة كما سبق هي الأوامر والنواهي التي جاءت في الشريعة، فالأوامر يفعلها المسلم طاعة لله والنواهي يتركها، دعوا الرسل الناس إلى أن يفردوا الله بالعبادة يخصوه بها، فالرسل من أولهم وهو نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى آخرهم نبينا وإمامنا محمد ﷺ كلهم يدعون الناس إلى العبادة، وإفراد الله تعالى بالعبادة.

يقول المؤلف: «لا إلى إثبات أنه خلقهم ونحوه»؛ لأنهم مقرون ما دعوهم إلى إثبات أن الله خلقهم؛ لأنهم معترفون بذلك ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ =

....

= ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

ولهذا **قال المؤلف**: «لا لإثبات أن الله خلقهم إذ هم مقرون بذلك كما قررناه وكررناه»، قال هنا المؤلف: بأنه قرر هذا وكرره، ولذا قالوا: يعني الأمم قالوا لأنبيائهم لرسلهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ كما أخبر الله عن نوح أنهم قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠].

أخبر الله أن قوم نوح قالوا له هذا، قال قوم نوح له: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾؛ يعني: نفرده بالعبادة فقط لأنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، ونوح عليه الصلاة والسلام أمرهم بأن يفردوا الله بالعبادة قال: لا تعبدوا إلا الله وهم يريدون أن يعبدوا الله ويعبدوا غيره، ولهذا أنكروا عليه أمرهم بأن يفردوا الله بالعبادة ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾؛ أي: نفرده بالعبادة ونخصه بها من دون آلهتنا.

يقول المؤلف: «فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله» هذا هو الذي أنكروه، وإلا فهم يعبدون الله وهم يريدون أن يعبدوا الله ويعبدوا معه غيره، والرسل أنكرت عليهم عبادة غير الله معه، ما أنكروا عليهم توحيد الربوبية؛ لأنهم مقرون به ولا أنكروا عليهم عبادة الله؛ لأنهم يعبدون الله، لكن أنكروا عليهم الإشراك في توحيد العبادة، وهو عبادة غير الله معه.

ولهذا **قال المؤلف**: «فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى».

ما أنكروا وجود الله فهم معترفون بوجود الله، ولا قالوا: إنه لا يُعبد؛ لأنهم يعبدون الله، بل أقروا بأنه يعبد وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، هذا الذي أنكروه كونه يخصص بالعبادة، فعبدوا مع الله تعالى غيره وأشركوا معه سواه واتخذوا معه أنداداً؛ يعني: نظراء معبودين سووهم بالله في المحبة والتعظيم والإجلال مثل الأصنام والأوثان والأشجار والأحجار والأنبياء والصالحين وغيرهم. =

....

= كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؛ أي: وأنتم تعلمون أنه لا ندّ له، وكانوا ـ يعني المشركين ـ يقولون في تلبيتهم للحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، يقولون: لبيك لا شريك لك هذا توحيد لكن قولهم: إلا شريكاً هذا نقض التوحيد، فلا تجعلوا لله شريكاً، وهذا شرك، لبيك لا شريك لك يقولون: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وهذا من جهلهم أثبتوا لله شريكاً معه، فأنكر عليهم النبي ﷺ وجاء بتلبية التوحيد: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك، وأبطل قولهم: «إلا شريكاً هو لك»[1].

قد أفردوه ـ جل جلاله ـ لو تركوا قولهم: إلا شريكاً هو لك فهذا من جهلهم.

يقول المؤلف: «فنفس اتخاذ الشركاء إقرار بالله ـ تعالى ـ» فهم أقروا بوجود الله وربوبيته لكن أشركوا معه غيره، فكونهم يقرون به ويشركون معه غيره وكونهم يعبدونه ويعبدون معه غيره هذا دليل على أنهم أقروا بتوحيد الربوبية وأقروا بوجود الله فنفس شركهم إقرار بوجود الله وإقرار بالربوبية، استشهد بالآية: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾؛ يعني: مع الله فأثبتوا وجود الله، ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤] ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] كل هذا إثبات منهم لوجود الله وإن كانوا أشركوا في العبادة.

ولهذا **قال المؤلف**: «فنفس اتخاذ الشركاء إقرار بالله تعالى، ولم يعبدوا الأنداد» ـ يعني المشركين ـ لم يعبدوا الأنداد إلا لاعتقادهم، وذلك بالخضوع والذل لهم والتقرب لهم بالدعاء والنحر والنذور والركوع والسجود وغيرها، فهم يعبدونها زاعمين أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم لديه كما أخبر الله تعالى =

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨٤).

....

= عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقال ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

يقول المؤلف: «فأرسل الله الرسل تأمرهم بترك عبادة كل ما سواه، وتبين أن هذا الاعتقاد الذي يعتقدون في الأنداد باطل، وأن التقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده»، فالعبادة حق لله ـ تعالى ـ لا تصرف إلى غيره فلا بدّ من الإخلاص لله في العبادة ومتابعة رسول الله ﷺ حتى يكون الإنسان مسلماً.



التوحيد الذي دعت إليه الرسل

ومِن هذا تعرف أنَّ التوحيد الذي دعتهم إليه الرسلُ مِن أولهم وهو نوح عليه السلام، إلى آخرهم وهو محمد بن عبد الله ﷺ، هو توحيد العبادة، ولذا تقول لهم الرسل: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود: ٢]، ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقد كان المشركون منهم مَن يعبدُ الملائكةَ ويناديهم عند الشدائد، ومنهم مَن يعبد أحجاراً ويهتف بها عند الشدائد، وهي في الأصل صوَرُ رجال صالحين كانوا يُحبُّونهم ويعتقدون فيهم، فلمَّا هلكوا صوَّروا صوَرَهم تسليًّا بها، فلمَّا طال عليهم الأمَد عبدوهم، ثم زاد الأمد طولاً فعبدوا الأحجار، ومنهم مَن يعبد المسيح، ومنهم من يعبد الكواكبَ، ويهتف بها عند الشدائد، فبعث الله محمداً ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، بأن يُفردوه بالعبادة كما أفردوه بالربوبية، بربوبيته للسَّموات والأرض، وأن يفردوه بمعنى ومُؤدى كلمة (لا إله إلَّا الله)، معتقدين لمعناها، عاملين بمقتضاها، وأن لا يدعوا مع الله أحداً[١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «ومن هذا تعرف أن التوحيد الذي دعتهم إليه الرسل من أولهم وهو نوح عليه الصلاة والسلام».

فنوح هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض؛ أي: بعد وقوع =

....

=الشرك، وأرسله الله إلى بنيه وغير بنيه وكان قبله أنبياء، كان قبل نوح شيث وهو نبي، وكان آدم وهو نبي لبنيه فقط، ولم يقع الشرك في زمانه، وإنما وقعت المعصية وهي قتل قابيل أخاه هابيل فمضت عشرة قرون كلهم على التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ [يونس: ١٩] قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد ثم اختلفوا فوقع الشرك[١] فبعث الله نوحاً.

فهو أول رسول بعثه الله بعد وقوع الشرك، وآخرهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام كلهم دعوتهم واحدة يدعون الناس إلى توحيد الله، وإفراد الله بالعبادة وينهونهم عن الشرك؛ ولهذا تقول لهم الرسل: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٢] ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] كان المشركون يعبدون معبودات متنوعة فمنهم من يعبد الملائكة ويناديهم عند الشدائد، ومنهم من يعبد أحجاراً يهتف بها عند الشدائد، ومنهم من يعبد الصالحين، ومنهم من يعبد الأنبياء ومنهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد النجوم والكواكب.

فبعث الله محمداً ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وبأن يفردوه بالعبادة كما أفردوه بالربوبية، فكما وحدوا الله في الربوبية عليهم أن يوحدوا الله في الألوهية، وأن يفردوه بمعنى ومؤدى كلمة «لا إله إلا الله» وهي لا معبود بحق إلا الله معتقدين لمعناها، ومعناها إثبات العبادة لله، ونفيها عن غير الله عاملين بمقتضاها، ومقتضاها أداء الواجبات وترك المحرمات، وألا يدعو مع الله أحداً.

---

(١) مسلم، رواه ابن جرير في جامع البيان (٢/٣٤٧) عند قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرعد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ أي: من شرط الصدق في الإيمان بالله أن لا يتوكلوا إلَّا عليه، وأن يُفردوه بالتوكُّلِ كما يَجب أن يُفردوه بالدعاء والاستغفار[١].

---

[١] قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرعد: ١٤]؛ أي: مخلوق وأي شيء يعبد من دون الله لا يمكن أن يستجيب، فإذا كان لا يستجيب فكيف يعبد من دون الله؟!!

وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] قدم الجار والمجرور؛ يعني: توكلوا على الله إن كنتم مؤمنين، فجعل من شرط الإيمان التوكل على الله، والتوكل يجمع أمرين كما سبق، فعل الأسباب النافعة ثم تفويض الأمر إلى الله، والاعتماد عليه في حصول النتيجة، قدم الجار والمجرور، فدل على أنه شرط لصحة الإيمان ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] ولهذا قال المؤلف: أي من شرائط الصدق في الإيمان ألا يتوكلوا إلا عليه، وأن يفردوه بالتوكل.

وأمر الله عبادَه أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولا يَصْدُق قائلُ هذا إلَّا إذا أفرد العبادة لله تعالى، وإلَّا كان كاذباً مَنهيًّا عن أن يقولَ هذه الكلمة؛ إذ معناها: نخصُّك بالعبادة ونفردُك بها دون كلِّ أحد، وهو معنى قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]؛ لما عُرف مِن علم البيان أنَّ تقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر؛ أي: لا تعبدوا إلَّا الله ولا تعبدوا غيرَه، ولا تتَّقوا إلَّا الله ولا تتقوا غيرَه، كما في «الكشاف»[١].

---

[١] أمر الله تعالى عباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: نخصك يا الله بالعبادة، فهي تفيد معنى لا إله إلا الله وهذا مستفاد من تقديم الضمير إياك نعبد، لو لم يقدم الضمير لصار نعبدك، ولا تفيد التوحيد.

والتوحيد لا بدّ فيه من أمرين: نفي وإثبات، النفي: «لا إله» والإثبات: «إلا الله»، وإياك نعبد تفيد الإثبات والنفي والمعنى: نعبدك ولا نعبد أحداً غيرك وهذا مستفاد من تقديم الضمير.

ولهذا **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يصدق قائل هذا إلا إذا أفرد العبادة لله تعالى»، فلا يصدق أن يقول: إياك نعبد وهو مشرك فيكون كاذب، ويصدق إذا أفرد الله بالعبادة ولهذا قال: وإلا كان كاذباً منهياً عن أن يقول هذه الكلمة ومثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ فقدم الضمير؛ أي: اعبدوني، ولا تعبدوا غيري وخصوني بالعبادة والتقوى.

يقول المؤلف: «كما عرف من علم البيان أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر».

فقدم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ والأصل نعبدك فقدم إياي ليفيد الحصر، والمعنى نحصر العبادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: لا تعبدوا إلا الله، ولا تعبدوا غيره ولا تتقوا غيره.

وقول المؤلف: «في «الكشاف»»؛ أي: للزمخشري.

فإفرادُ الله تعالى بتوحيد العبادة لا يتِمُّ إلَّا بأن يكونَ الدعاءُ كلُّه له، والنداءُ في الشدائد والرخاء لا يكون إلَّا لله وحده، والاستغاثة والاستعانةُ بالله وحده، واللّجوء إلى الله والنذر والنحر له تعالى، وجميع أنواع العبادات من الخضوع والقيام تذلُّلاً لله تعالى، والركوع والسجود والطواف والتجرد عن الثياب والحلق والتقصير كلُّه لا يكون إلَّا لله ﷻ[١].

---

[١] إفراد الله تعالى بتوحيد بالعبادة لا يتم إلا بأن يخص الله بجميع أنواع العبادة كالدعاء ولا يكون إلا لله والنداء في الشدائد والرخاء لا يكون إلا لله، والاستعانة والاستغاثة إلا بالله، وهذا إنما يكون شركاً في دعاء الميت أو الغائب أو الحي الحاضر العاجز أما دعاء الحي الحاضر القادر والاستغاثة به ودعائه فلا يكون شركاً؛ لأن الحي معه أسباب ظاهرة يقدر بها على إجابة المدعو واللجأ يكون إلى الله والنذر والنحر وجميع أنواع العبادات والخضوع والقيام تذللاً لله والركوع والسجود والطواف والتجرد عن الثياب، يكون هذا في الإحرام، المحرم يتجرد من المخيط، المقصود بالثياب؛ أي: المخيط، تجرد المحرم الرجل من المخيط تعبداً لله هذه عبادة، المحرم إذا أحرم بحج أو عمرة تجرد من المخيط من القميص ولبس إزاراً ورداء، والحلق والتقصير، الحلق والتقصير في الحج والعمرة يحلق رأسه أو يقصر عبادة، هذا في الحج وفي العمرة لا يكون إلا لله جل وعلا.

ومَن فعل شيئاً مِن ذلك لمخلوق حيٍّ أو ميت أو جماد أو غيره، فقد أشرك في العبادة، وصار مَن تُفعل له هذه الأمور إلَهاً لعابديه، سواءٌ كان مَلَكاً أو نبيًّا أو وليًّا أو شجراً أو قبراً أو جنيًّا أو حيًّا أو ميتاً، وصار العابدُ بهذه العبادة أو بأيِّ نوع منها عابداً لذلك المخلوق مشركاً بالله، وإن أقَرَّ بالله وعَبَدَه، فإنَّ إقرارَ المشركين بالله وتقرُّبَهم إليه لَم يُخرجهم عن الشركِ، وعن وجوب سَفك دمائِهم وسبي ذراريهم وأخذ أموالهم غنيمة، فالله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، لا يقبل عملاً شورك فيه غيرُه، ولا يؤمن به مَن عَبَدَ معه غيرَه[١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «من فعل شيئاً من ذلك» يعني من أنواع العبادة التي سبقت مثل الدعاء والنداء والاستغاثة والنذر والنحر والحلق وغيرها من فعل شيئاً من هذه «لمخلوق حي أو ميت أو جماد أو غير ذلك، فقد أشرك في العبادة وصار من تفعل له هذه الأمور إلهاً لعابديه، وصار العابد بهذه العبادة بأي نوع منها عابداً لذلك المخلوق مشركاً بالله وإن أقرّ بالله وعبده» فما ينفعه فكونه مقراً بالله ويعبد الله ما ينفعه، ما دام أنه يصرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله.

يقول المؤلف: «فإن إقرار المشركين بالله، وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك».

فالمشركون أقروا بالله وتقربوا إليه ويحجون ويصلون، ويصومون يوم عاشوراء في الجاهلية، ولكنهم مشركون يعبدون معه غيره فما تنفعهم هذه العبادة ولم تخرجهم هذه العبادة عن الشرك، كما قال المؤلف: ولم يخرجهم عن وجوب سفك دمائهم وسبي ذراريهم، فالرسول ﷺ قاتلهم واستحل دماءهم وأموالهم، وهم يعبدون الله؛ فقاتلهم لأنهم يشركون معه غيره قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**» والحديث القدسي من كلام الله لفظاً ومعنى، وقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، قال تعالى: «**أنا أغنى** =

....

= **الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**[١].

قوله: «ولا يؤمن به من عبد معه غيره»؛ أي: لا يؤمن بالله إيماناً صحيحاً من عبد معه غيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

إذا تقرَّر عندك أنَّ المشركين لَم ينفعهم الإقرارُ بالله مع إشراكهم في العبادة[١] ولا يغني عنهم مِن الله شيئاً، وأنَّ عبادتَهم هي اعتقادُهم فيهم أنَّهم يَضرُّون وينفعون[٢] وأنَّهم يقرِّبُونهم إلى الله زلفى، وأنَّهم يَشفعونَ لهم عند الله تعالى، فنَحَروا لهم النَّحائِر،

---

[١] هذا الفصل مضمونه ما سبق بيانه من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بأن إقرار المشركين بتوحيد الربوبية مع شركهم في توحيد العبادة ما ينفعهم ولا يفيدهم، ولا يدخلهم في الإسلام، ولا يخرجهم من دائرة الكفر، ولا ينقذهم من عذاب الله ومن الخلود في النار حتى يوحدوا لله، ويفردوه بالعبادة.

[٢] هذا فيه نظر. والأقرب والله أعلم أنهم لا يعتقدون في الأصنام أنها تضر وتنفع بل يعتقدون أنَّ الذي ينفع ويضر هو الله لكن هم عبدوهم ليقربوهم إلى الله زلفى كما أخبر الله؛ وليشفعوا لهم قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] يقولون هؤلاء صالحون أو أنبياء أو أحجار تسبح الله فهي تقربنا إلى الله، وتقضي حوائجنا عند الله وتشفع لنا عند الله، ونعلم أنه ليس بيدها شيء من الضر والنفع.

وقد يوجد من بعض المشركين من يعتقد النفع والضر في هذه الأصنام فيكون مشركاً في الربوبية، لكن هذا قليل والغالب أن شركهم في الألوهية.

ولهذا **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فنحروا لهم النحائر وطافوا بهم ونذروا النذور عليهم وقاموا متذللين متواضعين في خدمتهم وسجدوا لهم، ومع هذا كله فهم مقرون لله بالربوبية، وأنه الخالق» كما سبق «لكنهم لما أشركوا في عبادته جعلهم مشركين، ولم يعتد بإقرارهم هذا» ما نفعهم توحيد الربوبية مع شركهم في العبادة؟

قوله: «لأنه نافاه فعلهم»؛ أي: إقرارهم بتوحيد الربوبية، نافاه فعلهم وهو شركهم في العبادة، قول المؤلف: تيقن من أقر بتوحيد الربوبية أن يعبد هذا الرب الذي أقر بأنه الخالق الرازق المدبر المحيي المميت فيفرده بتوحيده العبادة.

وطافُوا بهم ونذروا النذور عليهم، وقاموا متذلِّلين متواضعين في خدمتهم وسجدوا لهم، ومع هذا كلِّه فهم مقرُّون لله بالربوبية وأنَّه الخالقُ، ولكنَّهم لَمَّا أشركوا في عبادته، جعلهم مشركين ولَم يَعْتَد بإقرارهم هذا؛ لأنَّه نافاه فعلُهم، فلم ينفعهم الإقرارُ بتوحيد الربوبية، فمِن شأن مَن أقرَّ لله تعالى بتوحيد الربوبية أن يُفردَه بتوحيد العبادة، فإذا لَم يفعل ذلك فالإقرارُ باطل[١].

وقد عرفوا ذلك وهم في طبقات النار[٢] فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، مع أنَّهم لم يُسَوُّوهم به من كلِّ وجه، ولا جعلوهم خالقين ولا رازقين، لكنَّهم علموا وهم في قَعْرِ جهنَّم أنَّ خلطَهم الإقرار بذرَّة من

---

[١] الإقرار الأول؛ يعني: بتوحيد الربوبية.

[٢] أي: لما دخل النار المشركون اعترفوا بأن سبب خلودهم في النار هو شركهم في العبادة، اسمع قول الله عنهم أنهم قالوا: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] هذا كلام أخبر الله أنه يقوله الكفار في النار وهم في طبقات النار أي دركاتها فالأصل أن يقول: دركات النار بدل طبقات؛ لأن النار دركات، كل دركة سفلى أعظم عذاباً من الدركة التي أعلى منها، وأما الجنة فهي طبقات ودرجات كل درجة عليا أعظم نعيماً من الدرجة التي تحتها.

فيقول الكفار وهم في دركات النار: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ يقولون للذين عبدوهم؛ لأن العابد والمعبود دخلوا النار، فلما صاروا في دركات النار صارت بينهم محاورة فاعترف العابدون الذين عبدوا الرؤساء والأنداد، قالوا: نحن في الدنيا في ضلال مبين ووجه الضلال: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ سووهم بالمحبة والتعظيم والإجلال والدعاء والذبح والنذر فكانوا معهم في النار.

ذرَّات الإشراك في توحيد العبادة صيَّرهم كمَن سَوَّى بين الأصنام وبين رب الأنام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] أي: ما يُقرُّ أكثرُهم في إقراره بالله وبأنَّه خلَقَهم وخلَق السمٰوات والأرض إلَّا وهو مشركٌ بعبادة الأوثان[١]. بل سمَّى الله الرياء في الطاعات شركاً، مع أنَّ فاعلَ الطاعة ما قصد بها إلَّا الله تعالى، وإنَّما أراد طلب المنزلة بالطاعة في قلوب الناس، فالمرائي عَبَدَ الله لا غيرَه، لكنَّه خَلَطَ عبادتَه بطلب المنزلة في قلوب الناس، فلم يقبل له عبادة وسمَّاها شركاً، كما أخرج مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عَملَ عملاً أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشركَه**»، بل سمَّى الله التسميةَ بعبد الحارث شركاً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠]، فإنَّه أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث سَمرة: أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَمَّا حملت حواء ـ وكان لا يعيش لها ولد ـ. طاف بها إبليس، وقال: لا يعيش لك ولد حتى تسمِّيه عبد الحارث، فسمَّته فعاش، وكان ذلك من وحي**

---

[١] أي: كونهم أشركوا بالله مع توحيد العبادة نقض إقرارهم بتوحيد الربوبية وما نفعهم وصيرهم كمن سوى بين الأصنام وبين رب الأنام؛ أي: رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] إقرارهم بالله هذا توحيد الربوبية والشرك هو شركهم في توحيد العبادة، ولهذا قال المؤلف: «ما يقر أكثرهم في إقرار بالله وبأنه خلقهم وخلق السماوات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الأوثان».

الشيطان وأمره، فأنزل الله الآيات، وسمَّى هذا التسمية شركاً، وكان إبليس تسمى بالحارث»، والقصة في الدر المنثور وغيره[١].

---

[١] المرائي فيه تفصيل، الرياء ينقسم إلى نوعين:

١ ـ رياء أكبر: وهو رياء المنافقين الذين أسلموا نفاقاً فهذا الرياء يخرج من الملة.

٢ ـ رياء أصغر: وهو الرياء الذي يصدر من المؤمن في العبادات فهذا شرك أصغر لا يخرج من الملة، وإنما يحبط العمل الذي قارنه الرياء واسترسل معه.

أما إذا طرأ الرياء في العبادة ودفعه واستعاذ بالله فلا يضره وإذا استرسل معه واستمر فهذا فيه خلاف بين أهل العلم، من العلماء من قال: إنه يجازى بالنية الأولى، ومنهم من قال: إنه إذا استرسل بطلت العبادة.

فقول المؤلف هنا ليس على إطلاقه؛ ولهذا قال المؤلف كما أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**(١).

سبق هذا الحديث في صحيح مسلم قال المؤلف بل سمى الله التسمية بعبد الحارث شركاً كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ [الأعراف: ١٩٠] فإنه أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث سمرة أن النبي ﷺ قال: **«لما حملت حواء وكان لا يعيش لها ولد طاف بها إبليس وقال: لا يعيش لك ولدك حتى تسميه عبد الحارث فسمته فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»** فأنزل الله الآيات وسمى هذه التسمية شركاً، وكان إبليس تسمى بالحارث والقصة في الدر المنثور وغيره(٢).

وهذه القصة سندها ضعيف، ولا تثبت هذه القصة لكن الآية كافية في =

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١١)؛ والترمذي (٣٠٧٧) وقال: حديث حسن غريب، وضعفه الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن (٢/ ٢٨٦) وذكر له ثلاث علل.

....

= ذلك، الآية في الأبوين، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٩] والذي خلق من نفس واحدة هو آدم وجعل منها زوجها حواء، فلما تغشاها؛ أي: جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾؛ أي: ثقل الحمل دعوا الله ربهما، أي: آدم وحواء: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: مولوداً صالحاً سليم الأعضاء ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وهذا الشرك إنما هو في التسمية وليس في العبادة، ولا يبعد أن يكون هذا الشرك صدر من الأبوين، كما صدر منهما الأكل من الشجرة، فيكون ذنباً آخر فيكون الشيطان خدعهما كما خدعهما في المرة الأولى، وهو شرك في التسمية لا في العبادة، ثم قال الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال كثير من المفسرين هذا في الذرية، فأول الآية: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠] هذا آدم وحواء شركاء «جعلا له» أي: في التسمية بأن سمياه: عبد الحارث.

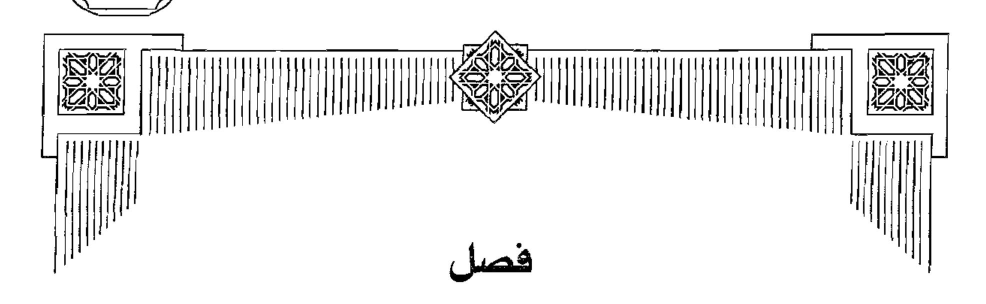
ثم قال الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا في الذرية.

وأما هذا الأثر فهو ضعيف عند أهل العلم.

هذا الأثر ساقه الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد[1]، ومقصوده منه الفائدة وإلّا فالآية كافية.

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾.



فصل

قد عرفتَ مِن هذا كلِّه أنَّ مَن اعتقد في شجر أو حجر أو قبر أو مَلَكٍ أو جنيٍّ أو حيٍّ أو ميت أنَّه ينفع أو يضر، أو أنَّه يقرِّب إلى الله، أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا بمجرد التشفع به والتوسل به إلى الرب تعالى، إلَّا ما ورد في حديث فيه مقال في حقِّ نبيِّنا محمد ﷺ أو نحو ذلك، فإنَّه قد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لا يَحلُّ اعتقادُه، كما اعتقده المشركون في الأوثان، فضلاً عمَّن ينذر بماله وولده لميِّت أو حي، أو يطلبُ من ذلك الميت ما لا يُطلب إلَّا من الله تعالى من الحاجات، من عافية مريضِه أو قدوم غائبه أو نيله لأيِّ مطلب من المطالب، فإنَّ هذا هو الشرك بعينه الذي كان ويكون عليه عُبَّادُ الأصنام.

والنَّذرُ بالمال للميت ونحوه، والنَّحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه، هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنَّما كانوا يفعلونه لِمَا يسمُّونه وثناً وصنماً، وفعله القبوريون لِمَا يسمُّونه وليًّا وقبراً ومَشهداً[١].

---

[١] هذا الفصل يبين فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من أشرك بالله في العبادة أو في الربوبية، فإن أعماله حابطة، ويكون مشركاً بالله جل وعلا ولا ينفعه إقراره =

....

=بربوبية الله؛ ولهذا قال المؤلف: قد عرفت من هذا كله أن من اعتقد في شجر أو حجر أو قبر فإنه قد أشرك مع الله غيره.

فمن اعتقد أن أحداً ينفع أو يضر فإنه مشرك في الربوبية لكن الغالب في المشركين أنهم لا يعتقدون في الحجر والشجر النفع والضر، فإنهم يعتقدون في الشجر والحجر والأنبياء والقبور وغيرها أنها تقربهم إلى الله ويشفعون لهم فهم مشركون في الألوهية، كما قال المؤلف: «أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا بمجرد التشفع به والتوسل إلى الرب تعالى»؛ أي: من اعتقد أن أحداً يقرب إلى الله بمجرد التشفع به، والتوسل؛ أي: يدعو المشرك ويعتقد أن هذا الدعاء وسيلة إلى الله هذا شرك.

والمؤلف يقول: «والتوسل إلى الرب تعالى إلا ما ورد من حديث فيه مقال في حق نبينا ﷺ فإنه قد أشرك مع الله غيره».

يريد بالحديث الذي قال أن فيه مقالاً حديث الأعمى المشهور، وحديث الأعمى جاء من طرق متعددة، وخلاصته أن رجلاً أعمى جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرد إلي بصري، فقال: «**إن شئت صبرت وإن شئت دعوت الله**»، فقال: بل ادعه، قال: «**ائت الميضأة وتوضأ وقل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، اللهم إني أتوجه إليك بحاجتي أن تقضى**»، فذهب الأعمى وتوضأ ودعا الله بأن يشفع فيه نبيه، ودعا له النبي ﷺ فرد الله إليه بصره. هذا الحديث حديث صحيح رواه الترمذي وغيره كما بين ذلك المحققون كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره[(١)].

فالحديث ثابت، لكن؟ الحديث فيه: أن الأعمى توسل إلى الله بدعاء النبي ﷺ وأن يقبل الله شفاعة النبي ﷺ فالرسول عليه الصلاة والسلام حيّ حاضر دعا لهذا الرجل، فرد الله إليه بصره وهذا ليس فيه شيء، فالممنوع أن=

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٣٨)؛ والترمذي (٣٥٧٨)؛ وابن ماجه (١٣٨٥) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

....

= يتوسل بالميت بأن يدعوه من دون الله هذا شرك، أو يتوسل بذاته فيجعل ذاته وسيلة، أما إذا كان حياً حاضراً يدعو وأنت تؤمّن فلا شيء فيه بل هذا من التوسل المشروع، والذي فعله الأعرابي، الرجل الأعمى مع النبي ﷺ هو هذا التوسل الجائز.

يقول المؤلف: «من صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله فإنه قد أشرك مع الله غيره واعتقد ما لا يحل اعتقاده، كما اعتقد المشركون في الأوثان، أنها ـ الأوثان ـ تقربهم إلى الله وتشفع لهم».

قال المؤلف: «فضلاً عمن ينذر بماله وولده لميت أو حي» فمن نذر لميت أو حي فقد أشرك، أو يطلب من ذلك الميت ما لا يطلب إلا من الله من الحاجات، يطلب من الميت أن يقضي حاجته أو أن يشفي مريضه، أو يطلب منه أن يرد غائبه فهذا شرك؛ ولهذا قال من عافية مريضه أو قدوم غائبه، بأن يدعو الميت ويقول: يا فلان إشف مريضي اردد غائبي أنا في حسبك أنا في جوارك فهذا شرك، أو نيله لأي مطلب من المطالب. قال المؤلف: «فإن هذا هو الشرك بعينه الذي كان، ويكون عليه عباد الأصنام» والنذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كان تفعله الجاهلية، الذي ينذر بالمال ينذر للميت حتى يشفع له أو ينحر على قبره، أي يذبح على قبره أو عند قبره يتقرب إليه أو يتوسل به بأن يعبده من دون الله أو يدعوه من دون الله.

يقول المؤلف: «هذا بعينه هو الذي كانت تفعله الجاهلية وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنماً وفعله القبوريون لما يسمونه ولياً وقبراً ومشهداً»، الجاهلية يتقربون بالذبح والنذر للأصنام والأوثان، وأما القبوريون الآن يفعلونه لما يسمونه ولياً وقبراً ومشهداً يقول: لا فرق بينهما ما فيه إلا تغيير الأسماء، والأسماء لا تغير المعاني، المشركون القدامى يذبحون وينذرون؛ للأصنام والأوثان والمتأخرون يذبحون وينذرون للولي صاحب القبر يسمونه ولياً أو يسمونه قبراً أو مشهداً ولا فرق بين فعل هؤلاء وهؤلاء إلا في التسمية، والتسمية لا تغير من الحقائق شيئاً؛ فلهذا قال المؤلف: والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني.

والأسماء لا أثر لها ولا تغيِّر المعاني ضرورة لغوية وعقلية وشرعية، فإنَّ مَن شرب الخمرَ وسمَّاها ماء، ما شربَ إلَّا خَمراً، وعقابُه عقابُ شارب الخمر، ولعلَّه يزيد عقابه للتدليس والكذب في التسمية.

وقد ثبت في الأحاديث أنَّه يأتي قومٌ يشربون الخمرَ يسمُّونها بغير اسمها، وصدق ﷺ، فإنَّه قد أتى طوائفُ من الفَسَقَة يشربون الخمر ويسمونها نبيذاً.

وأوَّلُ مَن سَمَّى ما فيه غضب الله وعِصيانه بالأسماء المحبوبة عند السامعين إبليس لعنه الله، فإنَّه قال لأبي البَشَر آدم عليه السلام: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فسَمَّى الشجرةَ التي نهى اللهُ تعالى آدمَ عن قِربانها شجرةَ الخُلد، جذباً لطبعه إليها، وهَزًّا لنشاطه إلى قِرْبانها، وتدليساً عليه بالاسم الذي اخترعه لها، كما يُسَمِّي إخوانُه المقلِّدون الحشيشةَ بلُقْمَة الراحة، وكما يُسَمِّي الظَّلَمَةُ ما يَقبضونه من أموال عباد الله ظلماً وعدواناً أَدَباً، فيقولون: أدب القتل، أدب السرقة، أدب التهمة، بتحريف اسم الظلم إلى اسم الأدب.

كما يحرِّفونه في بعض المقبوضات إلى اسم النفاعة، وفي بعضها إلى اسم السياقة، وفي بعضها أدب المكاييل والموازين.

وكلُّ ذلك اسمه عند الله ظلمٌ وعدوان، كما يعرِفه مَن شمَّ رائحةَ الكتاب والسنة، وكلُّ ذلك مأخوذٌ عن إبليس حيث سَمَّى

الشجرةَ المنهيّ عنها شجرةَ الخلد[١].

---

[١] **يقول المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأسماء لا تغير المعاني والحقائق، فالعبرة بالمعاني والحقائق، فالمشركون السابقون يتقربون للأصنام والأوثان يذبحون لها وينذرون لها».

والمتأخرون يتقربون لأصحاب القبور والمشاهد والأولياء والحكم واحد هؤلاء يسمونه صنماً، وهؤلاء يسمونه قبراً ومشهداً، وكل منهم يصرف له العبادة المعنى واحد فكلهم مشركون وإن تغيرت الأسماء، فالعبرة بالمعاني والحقائق؛ ولهذا قال: الذين أسلموا حديثاً في غزوة حنين لما مروا على المشركين ولهم سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم قالوا: يا رسول الله اجعل لنا شجرة نعلق بها أسلحتنا فقال النبي ﷺ: **«قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى»**: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وأصحاب النبي ﷺ قالوا: اجعل لنا ذات أنواط(١). والرسول ﷺ قال: المقالة هي المقالة؛ لأن العبرة بالمعاني وليست العبرة بالألفاظ، ويقول المؤلف: العبرة بالمعاني مثل من شرب الخمر وسماها بنبذا أو سماها شراب الروح، فهي خمر لا تتغير بالتسمية، وكذلك من يتعامل بالربا، ويسميه فائدة، أو عمولة أو ربحاً مركباً، فلا تخرج عن كونها رباً، وكذلك المكوس إذا أخذت وسميت ضريبة فهي مكس.

ويقول المؤلف: «وأصل ذلك إبليس هو الذي شرع تغيير الحقائق، فأمر آدم وحواء أن يأكلا من الشجرة التي نهى الله آدم عنها وسماها شجرة الخلد حتى يلبس عليهما ويجرهما إلى الأكل منها ويوقعهما في المعصية»، فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: الأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني ضرورة لغوية وعقلية وشرعية، فإن من شرب الخمر وسماها ماء ما شرب إلا خمراً وعقابه عقاب شارب الخمر ولعله يزيد عقابه للتدليس.

الشرح: فالذي يشرب الخمر عقابه ثمانون جلدة، والذي يغيرها ويسميها =

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠) وقال: حديث حسن صحيح.

....

= شراب الروح ينبغي أن يزاد عليه عقوبة؛ لأنه لبّس. وكما يسمى إخوان إبليس الحشيشة لقمة الراحة حتى يغرّ الناس بذلك، وإلا فهي لقمة العذاب.

قال المؤلف: «وكما يسمى الظلمة ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلماً وعدواناً أدباً»؛ أي: الضرائب التي يأخذونها يسمونها أدباً، أدب القتل أدب السرقة تحسيناً لها، فيحرفون اسم الظلم إلى اسم الأدب، كما يحرفون في بعض المقبوضات إلى اسم النفاعة أو العمولة أو مساعدة ومعاونة وهي محرمة وفي بعضها أدب السياقة وآداب المكاييل والموازين.

قال المؤلف: «وكل ذلك اسمه عند الله ظلم وعدوان كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسُّنة، وكل ذلك مأخوذ عن إبليس حيث سمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد»، فاقتدى به الفسقة فصاروا يسمون الخمر بغير اسمها، وكذلك يسمون المكوس بغير اسمها اقتداء بإبليس.

والحشيش يسميه البعض لقمة الراحة، حتى يُغَرّ الناس، وما هي لقمة الراحة؟ بل هي لقمة العذاب، وكما يسمي الظلمة ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلماً وعدواناً أدباً؛ يعني الضرائب التي يأخذونها بغير حق يسمونه أدباً أدب السرقة أدب التهمة تحسيناً له لتحريف اسم الظلم إلى اسم الأدب وكما يحرفون في بعض المقبوضات إلى اسم النفاعة وكان هذا في زمن المؤلف يسمون النفاعة مثل ما يسميها عمولة أو نسميها مثلاً مساعدة أو معاونة وهي محرمة، وفي بعضها أدب السرقة وأدب المكاييل والموازين وكل ذلك اسمه عند الله ظلم وعدوان، كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسنة.

وكل ذلك مأخوذ عن إبليس حيث سمى الشجرة المنهية: شجرة الخلد، فاقتدى به الفسقة فصاروا يسمون الخمر بغير اسمها، ويسمون المكوس بغير اسمها، ويسمون الربا بغير اسمه اقتداء بإبليس.

وكذلك تسمِيةُ القبرِ مَشهداً[١]، ومَن يعتقدون فيه وليًّا، لا

[١] **يقول المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ذلك تسمية القبر مشهداً» يسمون القبر مشهداً حتى يلبسوا على الناس ولو سموه معبداً لانصرف الناس عنه. وإلا هو في الحقيقة معبد يعبدونه من دون الله ويذبحون له وينذرون له، ومن يعتقدون فيه ولياً لا يخرجه عن اسم الصنم والوثن؛ أي: إذا قالوا: هذا قبر ولي فلان، فلا يخرجه عن كونه وثناً إذا كانوا يعبدونه من دون الله.

يقول المؤلف: «إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت».

كثير من المشركين صرفوا أنواعاً من العبادة لأصحاب القبور حتى ألّف بعض المشركين من الشيعة كتاباً سماه: (حج المشاهد)؛ يعني: حج القبور، فجعل لأصحاب القبور مناسكاً كمناسك الحج إلى بيت الله الحرام، إذا أقبل على القبر بمسافة يحرم كما يحرم الحاج والمعتمر ثم إذا وصل إلى القبر استلمه، وطاف به، ثم يصلي، عنده وبعد ذلك يذبح ويحلق رأسه، وهكذا ثم يهنئ بعضهم بعضاً يقولون لبعضهم: تقبل الله منك، فإذا قال له: هل تبيع هذه الحجة إلى القبر بحجة إلى بيت الله الحرام قال: لا ولا بألف حجة، هكذا سَوَّلَ لهم الشيطان والعياذ بالله كما ذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: إغاثة اللهفان.

ولهذا **قال المؤلف**: «إذ هم معاملون لهم معاملة المشركين للأصنام» ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية من قولهم: على الله وعليك ويهتفون باسمهم عند الشدائد ونحوها. وكل قوم لهم رجل ينادونه.

هذا في زمن المؤلف يقول: انتشر الشرك في الشام ومصر والعراق وفي كل مكان.

فأهل العراق والهند ينادون عبد القادر الجيلاني وهو رجل صالح من علماء الحنابلة دفن في العراق فصاروا يعبدونه من دون الله. وأهل تهامة لهم =

تخرجه عن اسم الصَّنم والوثن؛ إذ هم مُعاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام، ويَستلمونهم استلامَهم لأركان البيت، ويُخاطبون الميت بالكلمات الكفرية، مِن قولهم: على الله وعليك، ويَهتفون بأسمائِهم عند الشدائد ونحوها.

وكلٌّ قوم لهم رَجل ينادونه.

فأهلُ العراق والهند يَدعون عبد القادر الجيلي.

وأهل التهائم لهم في كلِّ بلد ميتٌ يهتفون باسمه، يقولون: يا زيلعي! يا ابن العجيل!

وأهلُ مكة وأهل الطائف: يا ابن العباس!

= في كل بلد ميت يهتفون باسمه ينادون يا زيلعي يا ابن العجيل. وأهل مكة والطائف يا ابن عباس. وأهل مصر يا رفاعي يا بدوي. والسادة البكرية وأهل الجبال يا أبا طير. وأهل اليمن يا ابن علوان. وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر وهذا هو الشرك بعينه.

ولهذا **قال المؤلف**: «وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية» وهي الأبيات التي أرسل بها إلى الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ. فالعلامة الصنعاني وافق الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دعوته وأرسل إليه هذه الأبيات.

ومنها أنه قال: إن المشركين في زمانه أعادوا بها معنى سواع ومثله يغوث وود؛ أي أن المشركين الذين في زمانه أعادوا الأصنام التي كانت في زمن نوح وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً كما قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

وأهل مصر: يا رفاعي! يا بدوي! والسادة البكرية!

وأهلُ الجبال: يا أبا طير!

وأهل اليمن: يا ابن علوان!

وفي كلِّ قرية أمواتٌ يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهذا هو بعينه فعلُ المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود، بئس ذلك من وُدِّ
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصَّمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيرة ... أهلَّت لغير الله جهراً على عمدٍ
وكم طائف حول القبر مقبِّلاً ... ويستلم الأركان منهنَّ باليد[١]

---

[١] **قال المؤلف:**

«أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود، بئس ذلك من وُدِّ
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصَّمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيرة ... أهلَّت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبر مقبِّلاً ... ويستلم الأركان منهنَّ باليد»

وهذا يدل على أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باقٍ على عقيدة التوحيد التي قررها في هذه العقيدة، وأما ما ذكر أن الصنعاني رجع وأنه نقض هذه القصيدة فهذا غير صحيح، فالأصل البقاء على هذه الرسالة، وأنه وافق الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأما ما ذكره صبحي حلاق في تحقيقه على هذه الرسالة أن بعضهم ذكروا أبياتاً تدل على أنه رجع عن هذه القصيدة، يقول فيها:

رجعت عن القول الذي قلت في ... النجدي فقد صح لي خلاف ما عندي
ظننت به خيراً وقلت عسى عسى ... نجد ناصحاً يهدي الإمام ويهتدي
فقد خاب فيه الظن ولا خاب نصحاً ... وما كل ظن للحقائق ليهدي =

....

= وقد جاءنا من أرض الشيخ منذر فحققا من أحواله كل ما يبدي

فهذه الأبيات متقولة عليه، والصواب أنه باقٍ على هذه العقيدة الصحيحة كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الرسالة، وأنه موافق للإمام محمد بن عبد الوهاب، والرسالة من أولها إلى آخرها تبين ذلك.

فإن قال: إنَّما نحرتُ لله وذكرتُ اسمَ الله عليه.

فقل: إن كان النَّحرُ لله فلأيِّ شيء قَرَّبت ما تنحرُه مِن باب مَشهد مَن تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟

إن قال: نعم!

فقل له: هذا النَّحر لغير الله، بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لَمْ تُرد تعظيمه، فهل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه؟ أنتَ تعلمُ يقيناً أنَّك ما أردت ذلك أصلاً، ولا أردت إلَّا الأول، ولا خرجتَ من بيتك إلَّا قصداً له، ثم كذلك دعاؤهم له.

فهذا الذي عليه هؤلاء شرك بلا ريب.

وقد يعتقدون في بعض فَسقة الأحياء، وينادونه في الشِّدَّة والرَّخاء، وهو عاكفٌ على القبائح والفضائح، لا يحضر حيث أمرَ الله عبادَه المؤمنين بالحضور هناك، ولا يَحضر جمعة ولا جماعة، ولا يعود مريضاً ولا يشيِّع جنازة، ولا يكتسب حلالاً، ويضُمُّ إلى ذلك دعوى علم الغيب، ويجلب إليه إبليس جماعة قد عَشَّشَ في قلوبهم وباض فيها وفرَّخ، يصدِّقون بهتانه، ويعظِّمون شأنه، ويَجعلون هذا ندًّا لربِّ العالمين ومِثلاً.

فيا للعقول أين ذهبت؟ ويا للشرائع كيف جهلت؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

فإن قلتَ: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء

والفسقة والخلعاء مشركين كالذين يعتقدون في الأصنام؟

قلتُ: نعم! قد حصل منهم ما حصل من أولئك وساووهم في ذلك، بل زادوا عليهم في الاعتقاد والانقياد والاستعباد، فلا فرق بينهم.

فإن قلتَ: هؤلاء القبوريون يقولون: نحن لا نشرك بالله تعالى ولا نجعل له ندًّا، والالتجاء إلى الأولياء والاعتقاد فيهم ليس شركاً!.

قلتُ: نعم! ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، لكن هذا جهل منهم بمعنى الشرك، فإنَّ تعظيمَهم الأولياء ونحرَهم النحائر لهم شركٌ، والله تعالى يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢] أي: لا لغيره، كما يفيدُه تقديم الظرف، ويقول تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨].

وقد عرفتَ بما قدَّمناه قريباً أنَّه قد سمَّى الرياءَ شركاً، فكيف بما ذكرناه؟!

فهذا الذي يفعلونه لأوليائهم هو عين ما فعَلَه المشركون وصاروا به مشركين، ولا ينفعهم قولهم: نحن لا نشركُ بالله شيئاً؛ لأنَّ فعلَهم أَكْذَبَ قولَهم[١].

---

[١] هذه مناقشة من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهؤلاء المشركين الذين يشركون بالله ويصرفون العبادة لغير الله، ويدعون أن هذا ليس بشرك وإنما هذه محبة وتوسل كما يقوله بعضهم، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يناقشهم ويبين أن ما فعلوه هو الشرك بعينه؛ لأنه صرف للعبادة لغير الله.

=

....

= **يقول المؤلف**: «فإن قال ـ أي المشرك الذي يذبح لغير الله: ـ إنما نحرت لله وذكرت اسم الله عليه»؛ لأن بعض المشركين يقول: بسم الله. وإذا قال: بسم الله وهو يقصد بها التقرب إلى صاحب القبر أو الجن أو الملائكة فهو مشرك، ولو قال: بسم الله فإنه لا يفيد؛ لأن العبرة بالاعتقاد والقصد، لا بالتسمية وحدها.

ويقول المؤلف: «فإن قال: إنما نحرت لله وذكرت اسم الله عليه. فقل: إن كان النحر لله فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه».

الشرح: لماذا تذبح عند باب المشهد والقبر؟ إن كان صادقاً فيذبح لله الأضحية والعقيقة والقرابين في الحج، أو اللحم فهذا لا بأس، أما أن تذبح عند المشهد والقبر، وتقول: أنا أذبح لله، فنقول: أنت كاذب، ونقول له أيضاً: هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم أردت تعظيمه، فنقول: هذا النحر لغير الله، بل أشركت مع الله، وإذا قال: لم أرد تعظيمه، فقل: هل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه؟

يقول المؤلف: «أنت تعلم يقيناً أنك ما أردت بذلك أصلاً أي ما أردت الله، بل أردت غيره، ولا أردت إلا تعظيمه ولا خرجت من بيتك إلا قصداً له وكذلك دعاؤهم له»، فهذا الذي عليه هؤلاء شرك بلا ريب، فمن دعاهم فقد أشرك؛ لأن النصوص صريحة في هذا كما سبق.

ويقول المؤلف: «وقد يعتقدون في بعض الفسقة الأحياء» أي إن بعضهم قد يعبد الأحياء الفسقة وينادونهم في الشدائد والرخاء وهو عاكف على القبائح والفضائح، لا يحضر حيث أمر الله عباده المؤمنين بالحضور هناك، ولا يحضر جمعة ولا جماعة ولا يعود مريضاً ولا يشيع جنازة ولا يكتسب حلالاً ويضم إلى ذلك دعوى التوكل وعلم الغيب. فهذا من الصوفية، يدعي أنه متوكل على الله، وأن التوكل هذا يكفيه عن العبادة، وكذلك يدعي علم الغيب؛ لأنه من الأولياء بزعمه. =

....

= ولا يحضر جماعة ولا جمعة؛ لأنه متوكل على الله فلا حاجة به إلى العبادة.

ويقول المؤلف: «ويجلب إليه إبليس جماعة قد عشش في قلوبهم، وباض فيها وفرخ يصدقون بهتانه ويعظمون شأنه»؛ أي: يجعل له أتباعاً يصدقونه في دعواه.

وقال المؤلف: «ويجعلون هذا ندّاً لرب العالمين ومثلاً» أي فيجعلونه شريكاً لله.

ويقول المؤلف: «فيا للعقول أين ذهبت». أي أين ذهبت عقولهم حتى أشركوا مع الله غيره، ويا للشرائع كيف جهلت أي شرائع الإسلام؟ ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ثم ناقشهم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فقال: فإن قلت: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء والفسقة والخلعاء مشركين كالذين يعتقدون في الأصنام»؟ أي هل تجعل الذي يذبحون للقبور وينذرون لها مثل الذين يعبدون الأصنام.

وقال المؤلف: «قلت: نعم. قد حصل منهم ما حصل من أولئك، وساووهم في ذلك»؛ أي: عملوا مثل ما عمل عبّاد الأصنام، فعبّاد الأصنام يذبحون لهم ويدعونهم، وهؤلاء يذبحون لهم ويدعونهم فالحكم واحد.

يقول المؤلف: «بل زادوا عليهم الاعتقاد والانقياد والاستعباد: فلا فرق بينهم».

فإن قلت: «هؤلاء القبوريون يقولون: نحن لا نشرك بالله تعالى ولا نجعل له نداً، والالتجاء إلى الأولياء والاعتقاد فيهم ليس شركاً».

فالقبوريون يقولون: الشرك إنما يقع من عباد الأصنام وأما نحن فلا نشرك بالله ولا نجعل له نداً، وإنما هذه محبة وتوسل وتشفّع بالصالحين.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلت: نعم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ولكن هذا جهل منهم بمعنى الشرك، فإن تعظيمهم الأولياء، ونحرهم النحائر لهم شرك». =

....

= فعملهم شرك وليس هناك فرق بينهم وبين المشركين السابقين إلا أن المشركين السابقين يذبحون للأصنام والأوثان وهؤلاء يذبحون للأولياء والصالحين، بل إن بعض المشركين السابقين يذبحون للأولياء والصالحين وبعضهم للأنبياء، فلا فرق بينهم، قال المؤلف والله ﷻ يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]؛ أي: لا لغيره كما يفيده تقديم الظرف، أي فقدم الجار والمجرور، والأصل (فَصَلِّ وَٱنْحَرْ لِرَبِّكَ) [الكوثر: ٢]؛ فلما قدم الجار والمجرور وهو في حكم الظرف صار يفيد الحصر، قال المؤلف ويقول تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨].

وقد عرفت بما قدمناه قريباً أنه سمى الرياء شركاً، فكيف بما ذكرناه. أي إذا كان الرياء شركاً فالدعاء والذبح والنذر من باب أولى أن يكون شركاً.

قال المؤلف: «فهذا الذي يفعلونه لأوليائهم هو عين ما فعله المشركون وصاروا به مشركين» أي: ما يفعله المشركون عند القبور اليوم هو ما يفعله المشركون السابقون عند الأصنام والأوثان.

قال المؤلف: و«لا ينفعهم»؛ قولهم: نحن لا نشرك بالله شيئاً؛ لأن فعلهم أكذب قولهم». أي المشركون المتأخرون يقولون: لا نشرك بالله لكن فعلهم شرك فالفعل يكذب القول.

فإن قلتَ: هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه.

قلتُ: قد صرَّح الفقهاء في كتب الفقه في باب الرِّدة أنَّ مَن تكلَّم بكلمة الكفر يَكفر وإن لَم يقصد معناها، وهذا دالٌّ على أنَّهم لا يعرفون حقيقةَ الإسلام، ولا ماهية التوحيد، فصاروا حينئذٍ كفاراً كفراً أصليّاً، فإنَّ الله تعالى فَرَضَ على عباده إفرادَه بالعبادة ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود: ٢]، وإخلاصها له ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ومَن نادى الله ليلاً ونهاراً وسرًّا وجهاراً وخوفاً وطمعاً، ثمَّ نادى معه غيرَه فقد أشرك في العبادة، فإنَّ الدعاءَ من العبادة، وقد سمَّاه الله تعالى عبادةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] بعد قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

فإن قلتَ: فإذا كانوا مشركين وجَب جهادُهم، والسلوك فيهم ما سلَكَ رسولُ الله ﷺ في المشركين.

قلتُ: إلى هذا ذهب طائفةٌ من أئمَّة العلم، فقالوا: يَجب أوَّلاً دعاؤهم إلى التوحيد، وإبانةُ أنَّ ما يعتقدونه لا ينفعُ ولا يَضر، ولا يغني عنهم من الله شيئاً وأنَّهم أمثالهم، وأنَّ هذا الاعتقاد منهم فيه شركٌ لا يتم الإيمانُ بما جاءت به الرسلُ إلَّا بتركه والتوبة منه، وإفراد التوحيد اعتقاداً وعملاً لله وحده.

وهذا واجبٌ على العلماء؛ أي: بيان أنَّ ذلك الاعتقاد الذي تفرَّعت عنه النذور والنحائر والطواف بالقبور شركٌ محرَّم، وأنَّه عينُ ما كان يفعله المشركون لأصنامهم، فإذا أبان العلماءُ ذلك للأئمَّة

والملوك، وَجَبَ على الأئمة والملوك بعثُ دعاة إلى الناس يَدعونهم إلى إخلاص التوحيد لله، فمَن رجع وأقرَّ حقن عليه دمه وماله وذراريه، ومَن أصَرَّ فقد أباح الله منه ما أباح لرسوله ﷺ من المشركين[١].

---

[١] فهذه سلسلة من الأسئلة والشبهات التي يشبه بها بعض المشركين والملبسين، أوردها المؤلف رحمه الله وهي تشبه الشبهات التي ذكرها الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في رسالته كشف الشبهات.

فالمؤلف يذكر الشبهة ثم يزيلها ويكشفها ويجيب عنها حتى لا تنطلي هذه الشبه التي يوردها أهل الشرك، ومن نحا نحوهم على أهل التوحيد.

يقول: «فإن قلت: هم جاهلون بما يفعلونه»؛ أي: القبوريون فهل هذا عذر؟.

فأجاب المؤلف رحمه الله قال: «قلت: قد صرح الفقهاء في كتب الفقه في باب الردة أن من تكلم بكلمة الردة يكفر، وإن لم يقصد معناها، وهذا دال على أنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام، ولا ماهية التوحيد فصاروا حينئذٍ كفاراً كفراً أصلياً»، فالمؤلف يقول: إن الفقهاء قرروا أن من تكلم بكلمة الكفر يكفر وإن لم يقصد معناها؛ أي: بأن قصد هذه الكلمة وهي كلمة كفرية وإن لم يقصد معناها فإنه يكون كافراً.

أما إذا كان لم يقصدها بأن جاءت على لسانه بدون قصد أو كان لا يعرف معنى هذه الكلمة فإنه لا يكفر. فالرجل الذي جاء في الحديث، كان في فلاة ومعه راحلته وعليها طعامه وشرابه ثم انفلتت منه وبحث عنها ولم يجدها حتى أيس فنام تحت شجرة فلما استيقظ وجدها عند رأسه فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؟[١].

فهذه كلمة كفرية لكنه لا يكفر لأنها جرت على لسانه بدون قصد، =

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

....

= وكذلك من تكلم بكلمة الكفر حاكياً كلمة الكفر فإنه لا يكفر كما ذكر المؤلف، فإن نقل كلام شخص فإنه لا يكفر؛ لأنه لا يقصد معناه، ومقصود المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن من تكلم بكلمة الكفر قاصداً هذه الكلمة يريدها وإن كان لا يعرف معناها ويعلم أنها محرمة لكن لا يعلم أنها توصله إلى الكفر فيقول المؤلف أنه يكفر، مثل من يعمل معصية كبيرة ويظن أنها صغيرة فنقول عملت معصية كبيرة، فلا يشترط أن يعلم أنها كبيرة.

فكذلك هنا إذا تكلم بكلمة الكفر قاصداً هذه الكلمة، ومن ذلك من تكلم بكلمة الكفر هازلاً وإن ادعى أنه لا يقصد الكفر كما حصل في غزوة تبوك في قصة الذين تكلموا بكلام استهزءوا فيه بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقراء وادعوا أنهم لا يقصدون المعنى وإنما يقصدون قطع الطريق قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] فجاء هذا الرجل ومن معه يعتذرون يقولون: يا رسول الله ما قصدنا إلا قطع الطريق، ولم نقصد الكلام الكفري ولا قصدنا المعنى الحقيقي لهذا الكلام، ومع ذلك كفرهم الله ولم يقبل منهم النبي ﷺ. فلا يُشترط قصد المعنى.

أما من جرى على لسانه بغير قصد كما يجري على لسان النائم أو الذي يهذي، أو جرى على لسانه حكاية عن غيره، أو جرى على لسانه من غير قصد مثل الرجل الذي قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك فإنه لا يكفر، فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: قرر الفقهاء أن من تكلم بكلمة الكفر وهو يقصد هذا الكلام وإن لم يقصد معناه فإنه يخرج من دائرة الإسلام ويكون كافراً.

ويقول المؤلف: «وهذا دالٌّ على أنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام ولا ماهية التوحيد فصاروا حينئذٍ كفاراً كفراً أصلياً، فالله تعالى فرض على عباده =

....

= إفراده بالعبادة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وإخلاصها له ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]».

«فمن نادى الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً وخوفاً وطمعاً ثم نادى معه غيره فقد أشرك في العبادة».

الشرح: أي: فمن دعا الله ودعا غيره فهذا مشرك، ومن صلى لله وصلى لغيره، أو سجد لله وسجد لغيره فلا ينفعه كونه يعبد الله، ويعبد معه غيره بل يكون مشركاً.

قال المؤلف: «فإن الدعاء من العبادة وقد سماه الله عبادة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ بعد قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]»؛ أي: فسمى الدعاء عبادة وتسمية الدعاء عبادة واضح في النصوص، قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] ادعوا الله؛ أي: اعبدوه، ثم قال: مخلصين له الدين، والدين هو العبادة، والأدلة في هذا كثيرة، ومن صرف الدعاء لغير الله فهو مشرك كافر. قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧] وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

قال المؤلف: «فإن قلت: فإذا كانوا مشركين وجب جهادهم، والسلوك فيهم ما سلك رسول الله ﷺ في المشركين»: «قلت: إلى هذا ذهب طائفة من أئمة العلم. فقالوا: يجب **أولاً** دعاؤهم إلى التوحيد» أي كما فعل رسول الله ﷺ مع المشركين؛ والمعنى: **إذا كان القبوريون مشركين فإنه يجب جهادهم وقتالهم مثل ما قاتل النبي ﷺ المشركين، أي إذا قامت عليهم الحجة وجب قتالهم، فينصحون أولاً ويبلغون فإن استجابوا وإلا قوتلوا...**».

ولهذا **يقول المؤلف**: «قلت: إلى هذا ذهب طائفة من أئمة العلم. فقالوا: يجب أولاً دعاؤهم إلى التوحيد وإبانة أن ما يعتقدونه لا ينفع ولا يضر ولا يغني عنهم من الله شيئاً، وأنه عين الشرك وأنهم أمثالهم، وأن هذا الاعتقاد منهم فيه شرك لا يتم الإيمان بما جاءت به الرسل إلا بتركه أو التوبة منه =

....

= وإفراد التوحيد اعتقاداً وعملاً لله وحده»؛ وهذا واجب على العلماء أي بيان أن ذلك الاعتقاد في القبور الذي تفرعت عنه النذور والنحائر. والطواف بالقبور شرك محرم وأنه عين ما كان يفعله المشركون لأصنامهم».

أي: النذور؛ يعني: أن ينذر للميت كذا وكذا، فينذر له حتى يشفي مريضه، أو يرد غائبه.

والنحائر جمع نحيرة؛ يعني: الذبائح.

قال المؤلف: «فإذا أبان العلماء ذلك للأئمة والملوك، وجب على الأئمة والملوك بعث دعاة إلى الناس يدعونهم إلى إخلاص التوحيد لله، فمن رجع وأقرّ حقن عليه دمه وماله وذراريه»، ومن أصر على ما هو عليه من الشرك «فقد أباح الله منه ما أباح لرسوله ﷺ من المشركين» في قتالهم وجهادهم».

وهذا الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أدلته واضحة من الكتاب كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وأدلته واضحة من السُّنة: فإن النبي ﷺ يبعث رسله إلى المشركين يدعونهم إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا قاتلهم.

كما بعث علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل خيبر وقال: «**ادعهم إلى الإسلام حتى تنزل بساحتهم**(١)**، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**» إلى غير ذلك من الأدلة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)؛ ومسلم (٢٤٠٦).

فإن قلتَ: الاستغاثة قد ثبتت في الأحاديث، فإنَّه قد صَحَّ أنَّ العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبي البشر، ثمَّ بنوح، ثمَّ بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، وينتهون إلى محمد ﷺ بعد اعتذار كلٍّ واحد من الأنبياء، فهذا دليلٌ على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر.

قلتُ: هذا تلبيس، فإنَّ الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه لا يُنكرُها أحد، وقد قال الله تعالى في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وإنَّما الكلام في استغاثة القبوريِّين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أموراً لا يقدر عليها إلَّا الله تعالى، مِن عافية المريض وغيرها، بل أعجَبُ من هذا أنَّ القبوريِّين وغيرهم من الأحياء مِن أتباع مَن يعتقدون فيه، قد يَجعلون له حصَّة مِن الولد إن عاش، ويشترون منه الحمل في بطن أمِّه ليعيش لهم، ويأتون بمنكرات ما بَلَغ إليها المشركون الأولون.

ولقد أخبرني بعضُ مَن يتولى قَبض ما ينذر القبوريُّون لبعض أهل القبور: أنَّه جاءه إنسانٌ بدراهم وحِلية نسائية، وقال: هذه لسيِّده فلان ـ يريد صاحب القبر ـ. نصف مهر ابنتي؛ لأنِّي زوجتها وكنتُ مَلكت نصفَ مهرها فلاناً ـ يريد صاحب القبر.

وهذه النذور بالأموال وجَعْلُ قِسط منها للقبر كما يجعلون شيئاً مِن الزرع يسمُّونه (تلما) في بعض الجهات اليمنية، وهذا شيءٌ ما بلغ إليه عُبَّادُ الأصنام، وهو داخلٌ تحت قول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [النحل: ٥٦] بلا شكٍّ ولا ريب.

نعم! استغاثةُ العِباد يوم القيامة وطَلبهم من الأنبياء إنَّما يدعون الله تعالى ليفصِلَ بين العباد بالحساب حتَّى يُريحَهم من هَوْل الموقف، وهذا لا شكَّ في جوازه، أعنِي طلبَ دعاء الله تعالى من بعض عباده لبعض، بل قد قال ﷺ لعمر رضي الله عنه لَمَّا خَرَج معتمراً: «**لا تنسنا يا أُخَيَّ من دعائك**».

وأَمَرَنا سبحانه أن ندعو للمؤمنين ونستغفر لهم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقد قالت أم سُليم رضي الله عنها: (يا رسولَ الله! خادمُك أنس، ادعُ الله له).

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يطلبون الدعاءَ منه ﷺ وهو حي، وهذا أمرٌ متفق على جوازه، والكلام في طلب القبوريِّين من الأموات أو من الأحياء الذين لا يَملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً أن يشفوا مرضاهم، ويردُّوا غائبَهم، وينفِّسوا عن حبلاهم، وأن يسقوا زرعَهم، ويُدِرُّوا ضروعَ مواشيهم، ويحفظوها من العين، ونحو ذلك من المطالب التي لا يقدر عليها أحدٌ إلَّا الله تعالى.

هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: ١٩٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، فكيف يطلب الإنسانُ من الجماد أو من حي. الجماد خير منه؛ لأنَّه لا تكليفَ عليه[١].

---

[١] وهذه من سلسلة الشبهات والأسئلة التي يوردها المؤلف، وهي الأسئلة التي ترد على ألسنة القبوريين.

=

....

= **يقول**: «فإن قُلتَ: الاستغاثة قد ثبتت في الأحاديث، فإنه قد صح أن العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبي البشر ثم بنوح، ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى وينتهون إلى محمد ﷺ بعد اعتذار كل واحد من الأنبياء فهذا دليل على أن الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر».

هذه شبهة يوردها بعض القبوريين اليوم، يقول: أنت تقول: إن الاستغاثة شرك، فأنا عندي دليل على أن الاستغاثة ليست بشرك.

يقول: **ثبت في الأحاديث**، في الصحيحين وغيرهما: **«أن الناس يوم القيامة إذا دنت الشمس من الرؤوس وزِيدَ في حرارتها استغاثوا بالأنبياء يأتون أولاً إلى آدم يقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، اشفع لنا إلى ربك، فيعتذر ويقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني أكلت من الشجرة التي نهاني الله عنها، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم»**.

في اللفظ الآخر أنه قال: **«اذهبوا إلى نوح ثم يأتون نوحاً ويقولون: يا نوح أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيتعذر ويقول: دعوت على أهل الأرض دعوة أغرقتهم، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إلى إبراهيم فيعتذر إبراهيم بكذباته الثلاث، وهي تورية، ويحيلهم إلى موسى فيقول: اذهبوا إلى موسى فإنه كليم الله، فيعتذر موسى ويقول: إنه قتل نفساً بغير حق. فيقول: اذهبوا إلى عيسى فيعتذر عيسى فيقول: إنه اتُّخِذَ هو وأمه إلهين من دون الله، اذهبوا إلى محمد فإنه خاتم النبيين، فيشفع نبينا ﷺ»**[1].

هذه شبهة يقول: وهذا دليل على أن الاستغاثة بغير الله ليست منكراً.

والجواب: **قال المؤلف**: «قلت: هذا تلبيس؛ فإن الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه لا ينكره أحد»، فهذا تلبيس منكم أيها المشركون، =

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١١).

....

= فالناس حينما يستغيثون يوم القيامة بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى إنما استغاثوا بهم وهم أحياء، والاستغاثة بالحي لا بأس بها إذا كان يَقْدِر.

مثل إنسان غرق في البحر وعنده سبّاح فقال: أغثني وكان قادراً يعرف السباحة فنزل فأخرجه فلا بأس به. وكذلك إنسان كان في حريق فاستغاث برجال الإطفاء فأغاثوه، وكذلك إنسان عليه ديون استغاث بمن ينجده ويقضي دينه فلا بأس، فإذا استغاث بالحي الحاضر القادر لا بأس بذلك، ولكن الممنوع الاستغاثة بالميت أو الاستغاثة بالغائب الذي لا يسمع، أو الاستغاثة بالحي في شيء لا يقدر عليه غير الله.

قال المؤلف: ومن الأدلة على جواز الاستغاثة بالحي الحاضر قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي قبل النبوة، خرج موسى في ديار مصر فوجد فيها رجلين يقتتلان كما قصّ الله في سورة القصص: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥] أحدهما إسرائيلي من شيعة موسى والآخر قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى فقال: أغثني، فأغاثه موسى فضربه ضربة كانت القاضية فمات، فلما علم فرعون والملأ صاروا يطلبونه، قال الناصح الذي جاء من أقصى المدينة: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] فخرج موسى خائفاً يترقب، فالشاهد من هذا أن موسى أغاث الإسرائيلي، حينما استغاث به لأنه حيّ حاضر قادر، وهذا كان قبل النبوة فتاب الله على موسى كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ وأرسل الله موسى عليه الصلاة والسلام، بعد ذلك فهذا من الأدلة على جواز الاستغاثة بالحي الحاضر القادر، قال المؤلف وقد قال الله تعالى في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

«وإنما الكلام في استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم»، فهذا هو الشرك، فالاستغاثة بالمقبور أو الغائب بقوله: يا فلان أغثني وهو ميت، أو يا فلان رد غائبي، أو اشفع لي عند الله، أو أنقذني من النار، أو أدخلني الجنة، =

....

=أو ارزقني، أو انصرني على عدوي، فهذا هو الشرك بعينه؛ لأنه يدعو ميتاً ليس بيده أسباب، وكذلك الغائب، والحي الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قال المؤلف: «وإنما الكلام في اسغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم وطلبهم منهم أموراً لا يقدر عليها إلا الله تعالى، من عافية المريض وغيرها، بل أعجب من هذا: أن القبوريين وغيرهم من الأحياء من أتباع من يعتقدون فيه قد يجعلون له حصة من الولد إن عاش، ويشترون منه الحمل في بطن أمه ليعيش لهم ويأتون بمنكرات ما بلغ إليها المشركون الأولون».

فهذا الذي ذكره المؤلف عنه هو الشرك، وذلك بأن يجعل للمقبور حصة من الولد، يقول إن عاش هذا الولد لك نصف كسبه، أو يقول مثلاً لبنته: إن عاشت هذه البنت حتى تزوجت فلك نصف مهرها أي ـ لصاحب القبر ـ، ويشترون منه الحمل في بطن أمه ليعيش في بطن الدابة أو غيرها، فيشترون من صاحب القبر ويعطونه حتى يعيش.

قال المؤلف: «وهذه النذور بالأموال وجَعْل قسط منها للقبر كما يجعلون شيئاً من الزرع، يسمونه تلما في بعض الجهات اليمنية، وهذا شيء ما بلغ إليه عُبَّاد الأصنام، وهو داخل تحت قول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [النحل: ٥٦] لا ريب ولا شك» ومن أدلة ذلك، قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦] يجعلون لله من الحرث والأنعام نصيباً، وللأصنام نصيباً.

قال المؤلف: «وهذا شيء ما بلغ إليه عُبَّاد الأصنام».

بل عباد الأصنام فعلوا هذا كما بين الله في القرآن، إذا أخذوا شيئاً من الزروع والثمار يجعلون قسطاً منها لله وقسطاً منها لصاحب القبر، فإذا زاد القسط الذي لله أخذوه وقالوا: الله غني عنه، وإذا زاد قسط صاحب القبر تركوه. =

....

= **قال المؤلف**: «نعم، استغاثة العباد يوم القيامة وطلبهم من الأنبياء إنما يدعون الله تعالى ليفصل بين العباد بالحساب؛ حتى يريحهم من هول الموقف، وهذا لا شك في جوازه، أعني طلب الدعاء لله تعالى من بعض عباده لبعض»؛ أي: أن العباد يوم القيامة عندما يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد هذا استغاثة حي بحي، فلا بأس بها؛ لأنه قادر، والممنوع استغاثة الحي بالميت، أو بالغائب أو بالحي غير القادر؛ ولهذا قال المؤلف: **لا شك في جوازه**، أعني طلب دعاء الله تعالى من بعض عباده لبعض، ومن الأدلة ما ذكره المؤلف، قال: بل قد قال ﷺ لعمر رضي الله عنه لما خرج معتمراً: «**لا تنسنا يا أخي من دعائك**»(١) لكنّ الحديث فيه ضعف؛ لأن في سنده عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب وهو ضعيف، لكنّ معنى الحديث صحيح، فقد دلت النصوص على أنه لا بأس بدعاء الحي للحي، ومن ذلك أن الله أثنى على الأحياء باستغفارهم لمن سبقهم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وقد قالت أم سليم رضي الله عنها: (يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له)(٢) وهذا في الصحيحين وغيرهما، فدعا النبي لأنس، دعاء حي حاضر لحي حاضر.

قال المؤلف: «وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يطلبون الدعاء منه ﷺ وهو حي(٣)، وهذا أمر متفق على جوازه»؛ قال المؤلف: يعني: دعاء الحي للحي، والكلام في طلب القبوريين من الأموات، أو من الأحياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً أن يشفوا مرضاهم». وهذا الذي ذكره المؤلف هو الشرك بعينه، وهو طلب بعض الأحياء من صاحب القبر أن يشفي مريضاً، وكذلك الحي فإنه لا يقدر على أن يشفي مريضاً؛ لأنه لا يقدر عليه =

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)؛ والترمذي (٣٥٥٧)؛ وابن ماجه (٢٨٩٤) وإسناده ضعيف، فيه عاصم بن عبد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٤).

(٣) كما سبق بيانه في حديث الأعمى وكذلك حديث: «خادمك أنس ادع له».

....

=إلا الله وطلبهم أن يردوا الغائب أو ينفسوا عن الحبلى - والحبلى يعني الحامل - أو يسقوا زرعهم، أو يدرّوا ضروع مواشيهم أو يحفظوها من العين، وهذا الذي ذكره المؤلف هو الشرك سواء طلبه من الميت أو الحي أو الغائب أو الحاضر؛ لأن هذه الأمور لا يقدر عليها إلا الله.

قال المؤلف: «هؤلاءهم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: ١٩٧]»؛ يعني: هم لا ينصرون أنفسهم فكيف ينصرونكم؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] كيف يطلب الإنسان من الجماد أو من حي - الجماد خير منه -؛ لأنه لا تكليف عليه.

وهذا يبيِّن ما فعله المشركون الذي حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل: ٥٦][١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «إن ما فعله هؤلاء مثل ما فعله المشركون الذين حكى الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾» جعلوا نصيباً لصاحب القبر، ونصيباً لله، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ [النحل: ٥٦].

فهؤلاء القبوريُّون والمعتقدون في جُهَّال الأحياء وضُلَّالهم سَلَكوا مَسالكَ المشركين حَذو القُذَّة بالقُذَّة[١] فاعتقدوا فيهم ما لا يجوز أن يُعتقد إلَّا في الله، وجعلوا لهم جُزءاً من المال، وقَصدوا قبورَهم من ديارهم البعيدة للزيارة، وطافوا حول قبورهم وقاموا خاضعين عند قبورهم، وهتفوا بهم عند الشدائد، ونحروا تقرباً إليهم[٢].

---

[١] قوله: «بالقذة» القذة: ريش السهم، والمعنى: أنهم نهجوا نهجهم دون انحراف ولا تغيير، كما تشبه ريشة السهم الريشة الأخرى بدون زيادة ولا نقصان.

[٢] فهؤلاء القبوريون الذين يعتقدون في أصحاب القبور سلكوا مسلك عباد الأصنام حذو القذة بالقذة فاعتقدوا منهم ما لا يجوز أن يعتقد إلَّا في الله، اعتقدوا أنهم ينفعون وأنهم يضرون وأنهم يقربونهم إلى الله، وأنهم يشفعون لهم، وأنهم يجلبون لهم الرزق، وأنهم يردون الغائب، وأنهم يشفون المريض، هذا لا يعتقد إلا في الله، ومع ذلك اعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد.

«وجعلوا لهم جزءاً من المال مثل ما جعل عُبَّاد الأصنام، وقصدوا قبورهم من ديارهم البعيدة للزيارة، وطافوا حول قبورهم وقاموا خاضعين عند قبورهم، وهتفوا بهم عند الشدائد، ونحروا تقرباً إليهم»؛ يعني: «فعلوا كل شيء، طافوا بالقبور وخضعوا لهم، ونادوهم في الشدائد وذبحوا لهم».

وهذه هي أنواع العبادات التي عرفناك، ولا أدري هل فيهم من يَسجد لهم؟ لا أستبعدُ أنَّ فيهم مَن يفعلُ ذلك، بل أخبرني مَن أثق به أنَّه رأى من يَسجُدُ على عَتَبَةِ باب مَشهد الوليِّ الذي يقصده تعظيماً له[١] وعبادة، ويُقسمون بأسمائهم، بل إذا حَلف مَن عليه حقٌّ باسم الله تعالى لَم يقبلوا منه، فإذا حلف باسم وليٍّ من أوليائهم قبلوه وصدَّقوه، وهكذا كان عُبَّاد الأصنام ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

---

[١] نعم هذا واقع، فهم يسجدون لهم ويركعون بل قد ألّف بعض عُبَّاد القبور، من الرافضة والشيعة، كتاباً سماه (حج المشاهد) وهي القبور، جعل للقبر حجاً، وقال: إن الإنسان يأتي لصاحب القبر ويحرم أولاً كما يحرم الحاج إلى بيت الله الحرام فإذا وصل القبر استلمه ثم طاف كما يطوف الحاج أو المعتمر بالكعبة، وإذا طاف بهذا الوثن صلى ركعتين وسجد لصاحب القبر، فإذا انتهى ذبح لصاحب القبر وحلق رأسه وهكذا، ويفعل هذا ألوف من الناس المشركين، ثم يهنئ بعضهم بعضاً إذا انتهوا، ويقول: أعظم الله أجرك وتقبل منك، وإذا قيل: هل تبيع هذه الحجة إلى القبر بحجة لبيت الله الحرام؟ قال: لا، ولا بألف حجة، نسأل الله السلامة والعافية. كما ذكر ذلك العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: إغاثة اللهفان وهذا واقع كما قال المؤلف: يسجدون لهم ويذبحون لهم، وينذرون لهم ويحجون لهم، ويكشفون رؤوسهم، ويحلقونها لهم ويفعلون جميع أنواع العبادة ويصرفونها لهؤلاء الأوثان.

فعظموا أوثانهم وأصنامهم وقبورهم أشد من تعظيمهم لله.

وفي الحديث الصحيح: «**مَن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[١].

وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يحلف باللَّات فأمره أن يقول: (لا إله إلَّا الله)، وهذا يدلُّ على أنَّه ارتدَّ بالحلف بالصَّنَم، فأمره أن يُجدِّد إسلامه، فإنَّه قد كَفَر بذلك، كما قرَّرناه في سبل السلام شرح بلوغ المرام، وفي منحة الغفار[٢].

---

[١] أخرجه البخاري (١٤٨٦٠)؛ ومسلم (١٦٤٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمع رسول الله ﷺ رجلاً يحلف باللات فأمره أن يقول: لا إله إلا الله». جاء في الحديث: «**من حلف فقال في حلفه: واللات، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال: تعالَ أقامرْك فليتصدق**»(١)؛ يعني: من حلف فقال: باللات يقول: لا إله إلا الله، هذه تكفر هذه، ومن قال: تعالَ أقامرْك، فليتصدق تكون الصدقة تكفر دعوته لفعل القمار.

أما **قول المؤلف**: «وهذا يدل على أنه ارتد بالحلف بالصنم، فأمره أن يجدد إسلامه فإنه قد كفر بذلك، كما قررناه في سبل السلام شرح بلوغ المرام»(٢)، فهذا فيه تفصيل، وذلك أنه إذا حلف: باللات معظماً للات، فهذا لا شك أنه كفر أكبر، أما مجرد الحلف فقط وهو لا يعتقد أن اللات تستحق العبادة فهذا كفر أصغر لا يخرج من الملة، وأنه إذا قال: لا إله إلا الله فهي تكفر عنه حلفه باللات.

[٢] واسم كتابه منحة الغفار حاشية ضوء النهار.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٧)؛ ومسلم (١٦٤٧).

(٢) سبل السلام (٤/١٩٧).

فإن قلتَ: لا سواء؛ لأنَّ هؤلاء قد قالوا: (لا إله إلَّا الله)، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يقولوا: لا إله إلَّا الله، فإذا قالوها عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالهم إلَّا بحقِّها**».

وقال لأسامة بن زيد: «**لِمَ قَتلتَه بعدما قال: لا إله إلَّا الله؟**»، وهؤلاء يُصَلُّون ويصومون ويزكُّون ويَحجُّون بخلاف المشركين[١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «فإن قلت: لا سواء؛ لأن هؤلاء قد قالوا: لا إله إلا الله، وقد قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا من مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[(١)] وقال لأسامة بن زيد رضي الله عنه: «لِمَ قتلته بعدما قال: لا إله إلا الله»[(٢)] وهؤلاء يصلون ويصومون ويزكون ويحجون بخلاف المشركين»، أي ويقولون: لا إله إلا الله ولكن نقول إذا فعل ناقضاً من نواقض الإسلام تبطل هذه الكلمة، فإذا كان الإنسان يصلي ويصوم ويزكي ويحج ولكنه فعل الكفر، كأن يسبّ الله مثلاً أو سب رسوله ﷺ، أو سب دين الإسلام أو استهزأ بالله أو برسوله أو بدينه، أو أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة، كأن يستحل الزنا أو يستحل الخمر، أو ينكر وجوب الصلاة أو الحج فإنه يكفر وإن قال: لا إله إلا الله؛ لأنها بطلت، بفعل الناقض لها كنواقص الطهارة مثل أن يتوضأ الإنسان ويحسن الوضوء ويتطهر ويحسن الطهارة، ثم خرج منه الحدث من بول أو غائط أو ريح زالت الطهارة وانتهت، فكذلك فعل ناقضاً من نواقض الإسلام فإن لا إله إلا الله لا تنفعه وكذلك الصلاة والزكاة والصوم والحج لا ينفعه مع وجود الناقض للإسلام.

وأما حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»؛ يعني: معتقدين بمعناها عاملين بمقتضاها ومن حقها أداء الواجبات وترك المحرمات.. ومن حقها =

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٤)؛ ومسلم (٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٢)؛ ومسلم (٩٦).

....

= الصلاة والزكاة، فمن امتنع عن الصلاة والزكاة والحج وإن قال: لا إله إلا الله فإنه يقاتل حتى يؤدي حقوق لا إله إلا الله، وأما قول النبي ﷺ لأسامة لما قتل الرجل قال: «**قتلته بعدما قال: لا إله إلا الله**».. فهذا لأن الكافر إذا قال: لا إله إلا الله حكم بإسلامه ويجب الكف عنه.. فإذا التزم بحقها كفّ عن قتله وإذا لم يلتزم به يقتل بعد ذلك.

قلتُ: قال: (إلَّا بحقها)، وحقُّها: إفرادُ الإلهية والعبودية لله تعالى[١]. والقبوريُّون لَم يُفردوا الإلهيةَ والعبادة، فلم تنفعهم كلمةُ

---

[١] **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: قلت: قد قال: «إلا بحقها» وحقها: إفراد الإلهية والعبودية لله تعالى..» والقبوريون لم يفردوا الله بالإلهية والعبادة».

أقول قوله: «**إلا بحقها**» والصواب أن المراد بحقها أداء الواجبات وترك المحرمات، وأيضاً هذه الكلمة لا بدّ فيها من معرفة المعنى، والعمل بالمقتضى والبعد عما يناقضها قال المؤلف: فلم تنفعهم كلمة الشهادة فإنها لا تنفع إلا مع التزام معناها كما لم ينفع اليهود قولها لإنكارهم بعض الأنبياء» فاليهود يقولون: لا إله إلا الله فما تنفعهم؛ لأنهم لم يقروا بنبوة النبي، ولهذا نفى الله إيمانهم بالله قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]. فقال الله: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وهم يقولون: لا إله إلا الله وعندهم كتب يعملون بها ولكن إيمان لا قيمة له؛ لأنهم لم يقروا برسالة النبي ﷺ فلم يعتبر إيمانهم إيماناً بسبب هذا الإنكار.

قال المؤلف: «كذلك من جعل غير من أرسله الله نبياً لم تنفعه كلمة الشهادة».

كمن أقرّ بنبوة مسيلمة الكذاب أو الأسود العنسي أو غيرهم ممن ادعى النبوة فإنه يكفر.. ولا شك أن الذي يجعل مسيلمة نبيّاً يكفر، فالذي يجعل للولي خاصية الإلهية ويناديه للمهمات أشد كفراً ولو كان يصلي ويصوم ويزكي ويقول: لا إله إلا الله فإن أعماله تبطل كلها، لماذا؟ لأنه فعل ناقضاً من نواقض الإسلام وذكر المؤلف أمثلة.. المثال الأول: بنو حنيفة كانوا يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكانوا يصلون ولكنهم قالوا: إن مسيلمة نبي فمرّ بهم بعض الصحابة فسمعوهم يقولون كلمة وأنهم يقولون مسيلمة نبي.. فأجمع الصحابة على قتالهم بسبب هذه الكلمة؛ لأنه انتقض بها التوحيد.

=

الشهادة، فإنَّها لا تنفع إلَّا مع التزام معناها، كما لَم ينفع اليهود قولُها لإنكارهم بعض الأنبياء.

وكذلك مَن جعل غير مَن أرسله الله نبيًّا، لم تنفعه كلمةُ

= والمثال الثاني قال المؤلف: وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ حرق أصحاب عبد الله بن سبأ[1] وكانوا يقولون: نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولكنهم غلوا في علي ﷺ واعتقدوا فيه ما يعتقد القبوريون وأشباههم، فعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحداً من العصاة..» فالسبئيون تعلموا العلم من الصحابة فكانوا يصلون ويصومون ويتعبدون، لكن غلوْا في عليّ حتى زعموا أنه إله، «فعند ذلك حفر لهم حفراً، وأجّج فيها ناراً وألقاهم فيها، وقال هذه الأبيات:

لَمَّا رأيتُ الأمرَ أمراً منكراً   أجَّجتُ ناري ودَعَوتُ قُنْبرَا[2]

قَنْبَر أو قُنْبَر هذا مولى لعلي ﷺ وقال الشاعر:

لترمِ بي المنية حيث شاءت   إذا لم ترم بي في الحفرتين
إذا ما أججوا فيهن ناراً   رأيت الموت نقداً غير دين

نقداً: شيئاً حاضراً، والقصة في (فتح الباري) وغيره من كتب الحديث والسير، وقد وقع إجماع الأمة على أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال: لا إله إلا الله، فكيف بمن يجعل لله ندا».

لأنه فعل ناقضاً من نواقض الإسلام، وأنكر أصلاً من أصول الإيمان فكيف بمن يجعل لله نداً؟ فإذا كان الذي ينكر البعث يكفر فإن الذي يجعل لله نداً يدعوه من دون الله أشد كفراً.

---

(١) هو من غلاة الروافض وكان يقول في أول أمره أن علياً كان نبياً، ثم زاد على ذلك فقال: كان إلهاً وكان يقول: هو الإله في الحقيقة، وكان يدعو الخلق إلى مقالته فأجابته جماعة إليها فلما رفع خبره إلى عليّ أمر بحفر حفرتين وكان يحرقهم فيها.

(٢) تاريخ الإسلام (١/ ٤٨٨)؛ وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١٢/ ٢٧٠).

الشهادة، ألَا تَرَى أن بني حَنِيفة كانوا يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله، ويُصَلُّون، ولكنَّهم قالوا: إنَّ مُسيلمة نبيٌّ، فقاتلهم الصحابةُ وسَبَوْهُم، فكيف بمن يَجعل للوليِّ خاصَّةَ الإلهية ويُناديه للمهمَّات؟!

وهذا أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب حرَّق أصحابَ عبد الله بن سبأ، وكانوا يقولون: نشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ولكنَّهم غَلَوا في علي، واعتقدوا فيه ما يَعتقد القبوريُّون وأشباهُهم، فعاقَبَهم عقوبةً لَم يُعاقب بها أحداً من العصاة، فإنَّه حَفر لهم الحفائر، وأجَّجَ لهم ناراً، وألقاهم فيها وقال:

لَمَّا رأيتُ الأمرَ أمراً منكراً ... أجَّجتُ ناري ودَعَوتُ قُنْبرَا

وقال الشاعر في عصره:

لِتَرْم بي المنيَّة حيث شاءت ... إذا لَم ترم بي في الحُفرتَين

إذا ما أجَّجوا فيهنَّ ناراً ... رأيت الموت نقداً غير دَيْن

والقصَّة في فتح الباري وغيره من كتب الحديث والسير.

وقد وقع إجماعُ الأمَّة على أنَّ مَن أنكر البعثَ كَفَر وقُتِل، ولو قال: لا إله إلَّا الله، فكيف بمن يجعل لله ندًّا؟!

فإن قلتَ: قد أنكر ﷺ على أسامة قتلَه لِمَن قال: (لا إله إلَّا الله)، كما هو معروف في كتب الحديث والسير.

قلتُ: لا شكَّ أنَّ مَن قال: (لا إله إلَّا الله) من الكفار حَقَنَ دمَه ومالَه حتى يتبيَّن منه ما يُخالف ما قاله، ولذا أنزل الله في قصَّة محلم بن جثامة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ...﴾ [النساء: ٩٤] فأمرهم الله تعالى بالتثبُّت في شأن مَن قال كلمةَ التوحيد، فإن تبيَّن التزامُه لمعناها كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن تبيَّن خلافُه لَم يحقن دمه وماله بمجرد التلفظ[١].

---

[١] هذه شبهة وهي أن يقال أن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتله لمن قال: «لا إله إلا الله»، فكيف ينكر عليه وهو كافر فقال المؤلف: الجواب أن من قال: لا إله إلا الله، فقد حقن دمه وماله حتى يتبين منه ما يخالف قوله؛ يعني: إذا تكلم بكلمة التوحيد وكان لا يقولها في كفره حكم بإسلامه، ثم بعد ذلك ينظر إن التزم بالإسلام فالحمد لله، وإن قال أو فعل ما يناقض التوحيد قتل، ولذا أنزل الله في قصة محلم بن جثامة(١) هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤] وذلك أنه لما مرّ بالصحابة سلم عليهم، أو قال: لا إله إلا الله فقتلوه، فأنكر الله عليهم فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] فأمرهم الله بالتثبت في شأن من قال كلمة التوحيد، فإذا التزم بمعناها كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن تبين خلافه لم يحقن دمه وماله بمجرد التلفظ، وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن عبَّاس في الحديث المتفق عليه قال لقِيَ نَاسٌ مِنَ المُسلمين رَجُلاً فِي غُنَيمةٍ لهُ فقال السَّلامُ عليكُم فقتَلُوهُ وَأخَذوا تِلكَ الغُنَيْمَة فنزلت ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] وقرأهَا ابنُ عَبَّاسٍ: (السَّلَامَ).

---

(١) قصة محلم بن جثامة أخرجها: أحمد (٦/ ١١)؛ والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٠٥) وإسناده صحيح.

....

= أخرجه البخاري (٤٥٩١) قال: حدثني علي بن عبد الله. و«مسلم» ٨/ ٢٤٣ (٧٦٥١) قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وإسحاق بن إبراهيم، وأحمد بن عَبْدة الضبي. وعن سفيان قال: ألقى إليكم السلام، نطق بالشهادتين، أو حياكم بتحية الإسلام، «لست مؤمناً»؛ أي: تقولون: لم يؤمن حقيقة، وإنما نطق بالإسلام تَقِيَّةً[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩١)؛ ومسلم (٣٠٢٥).

وهكذا كلُّ مَن أظهر التوحيد وجب الكَفُّ عنه إلى أن يتبين منه ما يخالف ذلك، فإذا تبيَّن لَم تنفعه هذه الكلمةُ بمجردها، ولذلك لَم تنفع اليهود ولا نفعت الخوارج مع ما انضمَّ إليها من العبادة التي يحتقر الصحابةُ عبادتَهم إلى جنبها، بل أَمَرَ ﷺ بقتلهم، وقال: «**لئن أدركتُهم لأقتلَنَّهم قتل عاد**»، وذلك لَمَّا خالفوا بعضَ الشريعة وكانوا شرَّ القَتلى تحت أديم السماء، كما ثبتت به الأحاديث.

فثبت أنَّ مجرَّدَ قول كلمة التوحيد غيرُ مانع من ثبوت شرك مَن قالَها؛ لارتكابه ما يُخالفها من عبادة غير الله[١].

---

[١] هذه قاعدة شرعية معلومة عند أهل العلم وهي: أن كل من أظهر التوحيد وجب الكف عنه إلا أن يتبين منه ما يخالف ذلك، ونحكم عليه بحكم الإسلام ثم بعد ذلك ننظر إن التزم بأحكام الإسلام فهو أخ لنا مسلم، وإن فعل ما ينقض الإسلام بعد ذلك يقتل ويكون مرتداً.

فإذا تبين أنه غير مسلم لم تنفعه هذه الكلمة بمجردها، ولذلك لم تنفع اليهود؛ لأنهم نقضوها بإنكار نبوة محمد ﷺ ولا نفعت الخوارج مع ما انضم إليهم من العبادة التي يحتقر الصحابة عبادتهم إلى جنبها، بل أمر ﷺ بقتلهم وقال: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[١] وذلك لما خالفوا بعض الشريعة، وكانوا شر القتلى تحت أديم السماء كما ثبت به الأحاديث.

هذا يدل على أن المؤلف يرى أن الخوارج كفار، وهذا قول لبعض أهل العلم، ورواية عن الإمام أحمد، واستدل بقول النبي ﷺ: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**» وقوم عاد كفار، وبقول النبي ﷺ: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[٢] وفي لفظ: «**يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه**» فهذا دليل على كفرهم.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)؛ ومسلم (١٠٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٨)؛ ومسلم (١٠٦٤).

....

= ومذهب الخوارج تكفير الناس بالمعاصي، ويرون أن فاعل الكبيرة يكفر: كالزاني، والسارق، وشارب الخمر، والمرابي، وآكل الرشوة، والعاق لوالديه، وقاطع الرحم، ولكن جمهور العلماء على أنهم مبتدعة عصاة[١]، وليسوا كفاراً، والصحابة عاملوهم معاملة المبتدعة ولم يعاملوهم معاملة الكفار؛ لأنهم متأولون، واستدلوا بقول علي رضي الله عنه لما سئل هل هم كفار؟ قال: من الكفر فروا[٢]، فهم متأولون حيث حملوا النصوص التي في الكفار على المسلمين، فصاروا يكفرون المسلمين العصاة.

فقال المؤلف: «فثبت أنَّ مجرَّدَ قول كلمة التوحيد غيرُ مانع من ثبوت شرك مَن قالَها؛ لارتكابه ما يُخالفها من عبادة غير الله» يعني: تكلم بكلمة التوحيد ثم فعل الشرك أو الناقض، فإن هذه الكلمة لا تعصم دمه وماله، بل يكون كافراً.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما تكفيرهم وتخليدهم: ففيه قولان مشهوران وهما روايتان عن أحمد والقولان في الخوارج والمارقين من الحرورية والرافضة ونحوه والصحيح أن هذه الأقوال التي يقولونها التي يعلم أنها مخالفة لما جاء به الرسول كفر وكذلك أفعالهم التي هي من جنس أفعال الكفار بالمسلمين يراجع مجموع الفتاوى لتصحيح الجملة هي كذا نصاً وقد ذكرت دلائل في غير هذا الموضع لكن تكفير الواحد المعين منهم والحكم بتخليده في النار موقوف على ثبوت. شروط التكفير وانتفاء موانعه فإنا نطلق القول بنصوص الوعد والوعيد والتكفير والتفسيق ولا نحكم للمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم المقتضى الذي لا معارض له.اهـ. ينظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠٠).
وقال رحمه الله: «الخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيراً ولم يكن في الصحابة من تكفيرهم لا علي ولا غيرهم بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين» ينظر: كتاب الإيمان ص(١٧٢).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٣٤٥).

فإن قلتَ: القبوريُّون وغيرُهم مِن الذين يَعتقدون في فَسَقَة الناس وجُهالِهم من الأحياء يقولون: نحن لا نعبد هؤلاء، ولا نعبد إلَّا الله وحده، ولا نصلي لهم، ولا نصوم ولا نحجُّ[١].

قلتُ: هذا جهلٌ بمعنى العبادة، فإنَّها ليست منحصرةً في ما ذكرتَ، بل رأسها وأساسها الاعتقاد[٢].

---

[١] يقول القبوريون الذين يعبدون القبور: نحن ما نعبد القبور، وكذلك أيضاً الذي يعتقد في فسقة الأحياء، يقولون: نحن ما نعبدهم، نحن لا نعبد إلا الله ولا نصلي إلا لله ولا نصوم إلا لله ولا نحج إلا لله، كيف تجعلونا مثل عُبَّاد الأصنام؟

[٢] هاتان شبهتان من سلسلة الشبهات التي يذكرها المؤلف، قال: فإن قلت: (القبوريون وغيرهم من الذين يعتقدون في فسقة الناس وجهالهم من الأحياء يقولون: نحن لا نعبد هؤلاء ولا نعبد إلا الله وحده، ولا نصلي لهم ولا نصوم ولا نحج). يعني يقول القبوريون: نحن لا نعبد القبور، وكذلك الذي يعتقد في الفسقة الأحياء يقولون: نحن لا نعبدهم، ولا نعبد إلا الله، ولا نصلي إلا لله، ولا نصوم إلا له، ولا نحج إلا له، كيف تجعلوننا مثل عباد الأصنام.

قال المؤلف: «هذا جهل منكم بمعنى العبادة»: فالعبادة ليست منحصرة في الصلاة والصوم والحج، فإن العبادة أنواعها كثيرة، مثل الدعاء، والذبح، والنذر، ومن العبادات الاعتقاد فإذا اعتقدوا أنه يجوز أن يصرف له نوع من أنواع العبادة، فهذا كفر بمجرد الاعتقاد فإن رأس العبادة وأساسها الاعتقاد، وأنتم تعتقدون أنه يجوز أن يصرف لصاحب القبر هذه العبادات، فهذا الاعتقاد كفر مستقل، وكذلك الصلاة والزكاة مع كلمة التوحيد لا تنفع إذا وجد ناقض من نواقض الإسلام، فتبطل هذه العبادات وتنتقض على صاحبها بهذا الناقض.

وقد حصل في قلوبهم ذلك، بل يسمُّونه معتقداً، ويصنعون له ما سمعتَه مِمَّا تفرَّع عن الاعتقاد من دعائهم وندائهم والتوسل بهم والاستغاثة بهم والاستعانة والحلف والنذر، وغير ذلك.

وقد ذكر العلماءُ أن من تَزَيَّا بزيِّ الكفَّار صار كافراً، ومَن تكلَّم بكلمة الكفر صار كافراً، فكيف بمن بَلَغَ هذه الرتبةَ اعتقاداً وقولاً وفعلاً[١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «وقد حصل في قلوبهم ذلك»: يعني أنه قد حصل في قلوبهم أن صاحب القبر يستحق أن تصرف له العبادات.. بل يسمون صاحب القبر معتقداً؛ لأنهم يعتقدون أنه يستحق العبادة ويصنعون له ما سمعته مما تفرع عن الاعتقاد، ولو لم يعتقدوا بأنه يستحق العبادة ما عبدوه من دون الله: من دعائهم وندائهم والتوسل بهم والاستغاثة والاستعانة والحلف والنذر لهم وغير ذلك.

قال المؤلف: «وقد ذكر العلماء أن من تزيَّا بزيِّ الكفار صار كافراً»: هذا فيه تفصيل، إذا تزيّا بزيّ الكفار بمجرد التزيّ قد لا يصل إلى درجة الكفر، ولكن إذا تزيا معظماً للكفار أو معظماً لدينهم وأنه يجوز له أن يتزيا بزيهم فهذا كفر.

والمسألة فيها كلام لأهل العلم وجاء في الحديث: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»(١) فالتشبه بهم أقل أحواله التحريم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢) وإلا فظاهره الكفر.

قوله: «ومن تكلم بكلمة الكفر صار كافراً»؛ يعني: إذا تكلم بكلمة الكفر قاصداً لهذه الكلمة فإنه يكفر، أما إذا تكلم بكلمة الكفر ذاهلاً، أو جرت على لسانه بغير قصد فلا يكفر. أو تكلم بكلمة الكفر حاكياً عن غيره فلا يكفر.

يقول: «فكيف بمن بلغ هذه الرتبة اعتقاداً وقولاً وفعلاً»؛ يعني: من يعتقد أن صاحب القبر يستحق أنواع العبادة أو فعل الشرك بقوله أو فعله.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)؛ وأبو داود (٤٠٣١) قال ابن تيمية: سنده جيد، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٧١): سنده حسن.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص(١١٦).

فإن قلتَ: هذه النذورُ والنحائرُ ما حكمها؟[١].

---

[١] يعني: هذه النذور وهذه الذبائح تنذر لصاحب القبر وتدفع الأموال، فما دفعها إلا لأنه يعتقد أن صاحب القبر يستحق التعظيم ويستحق العبادة، فهذا الاعتقاد كفر؛ لأن الأموال عزيزة كما يقال: المال شقيق الروح، فيقرب الأموال عند صاحب القبر، لاعتقاده أنه يستحق النذر، وتعظيماً له يعني ليس المراد مجرد وضع المال كما يقول المؤلف؛ لأن الناذر ما خرج الأموال ووضعها إلا لاعتقاده أنه يستحق النذر. ولو عرف الناذر بطلان ما نواه ما أخرج درهماً؛ فإن الأموال عزيزة عند أهلها يحبونها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨] قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ [محمد: ٣٦، ٣٧] فيتبيَّن بذلك أن حكم النذور والنحائر التي تذبح عند القبور شرك.

قلتُ: قد عَلِمَ كلُّ عاقل أنَّ الأموالَ عزيزةٌ عند أهلها، يَسعون في جَمعها ولو بارتكاب كلِّ معصية، ويَقطعون الفيافِيَ مِن أدنى الأرض والأقاصي، فلا يبذلُ أحدٌ مِن ماله شيئاً إلَّا معتقداً لجِلب نفعٍ أكثرَ منه أو دفع ضرٍّ، فالنَّاذرُ للقبر ما أخرَج مالَه إلَّا لذلك، وهذا اعتقادٌ باطل، ولو عرَفَ النَّاذرُ بطلانَ ما أراده ما أخرَجَ درهماً، فإنَّ الأموالَ عزيزةٌ عند أهلها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [محمد: ٣٦، ٣٧].

فالواجبُ تعريفُ مَن أخرج النذرَ بأنَّه وإضاعةٌ لِمالِه، وأنَّه لا ينفعه ما يُخرجه ولا يدفع عنه ضرراً، وقد قال ﷺ: «**إنَّ النَّذرَ لا يأتي بخير، وإنَّما يُستخرَج به من البخيل**»، ويجب رده إليه.

وأمَّا القابض للنَّذر فإنَّه حرامٌ عليه قبضه؛ لأنَّه أكْلٌ لِمال الناذر بالباطل، لا في مقابلة شيء، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، ولأنَّه تقريرٌ للناذر على شِركه وقُبح اعتقاده ورضاه بذلك، ولا يخفى حكمُ الراضي بالشرك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: ٤٨]، فهو مثل حُلوان الكاهن ومَهر البغي، ولأنَّه تدليسٌ على الناذر، وإيهامٌ له أنَّ الوليَّ ينفعه ويضره.

فأيُّ تقرير لِمنكر أعظم مِن قبض النذر على الميت؟ وأيُّ تدليس أعظم؟ وأيُّ رضا بالمعصية العظمى أبلغ من هذا؟ وأيُّ تصيير لمنكر معروفاً أعجب مِن هذا؟ وما كانت النذورُ للأصنام والأوثان إلَّا على هذا الأسلوب، يعتقدُ النَّاذرُ جلبَ النفع في الصنم ودفع الضرر، فينذرُ له جَزوراً من ماله، ويقاسمه في غلَّات أطيانه، ويأتي

به إلى سَدَنة الأصنام فيقبضونه منه، ويوهمونه حقيَّة عقيدته، وكذلك يأتي بنحيرته فينحرُها بباب بيت الصنم.

وهذه الأفعال هي التي بعث الله الرسلَ لإزالتها ومَحوِها وإتلافها والنهي عنها[١].

---

[١] يقول المؤلف: الواجب على المسلم أن ينكر المنكر، وأعظم المنكرات الشرك، وهذه النذور منكرات شركية، فالواجب تعريف من أخرج النذر بأنه شرك وإضاعة لماله، وأنه لا ينفعه ما يخرجه ولا يدفع عنه ضرراً، فالواجب على المسلم نصيحة هذا الذي ينذر للقبور ويأتي بالأموال أو بجزء من الحرث ومن الأنعام وغيرها، نصحيته عن هذا الشرك، وتحذير من أخرج النذر بأنه إضاعة لماله، وأنه لا ينفعه ما يخرجه ولا يدفع عنه ضرراً.

يقول المؤلف: يجب على المسلم أن ينصح هذا الناذر، ويقول له: إن هذا إضاعة لمالك ولا ينفعك هذا الذي تخرج ولا يدفع عنك ضرراً، ونحن نقول: بل يجب عليه أن ينصحه بأن هذا شرك أولاً، قبل أن ينصحه بأنه إضاعة للمال.

ثم نبين له ثانياً أنه مع كونه شركاً فهو إضاعة للمال، فصاحب القبر ميت، فلو كشفت عنه وجدته عظاماً بالية، فكيف تضع الأموال عنده؟! وقد قال النبي ﷺ: «**إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل**»(١).

هذا الحديث في حق الناذر الذي ينذر لله، أما الناذر الذي ينذر للميت فإنه مشرك كافر، فالأفضل أن تفعل العبادة لله بدون نذر لأنك بالنذر تلزم نفسك شيئاً قد عافاك الله منه.

ثم يقول المؤلف: أما الذي يقبض النذر الشركي فإنه حرام عليه لأنه أكل لمال الناذر بالباطل لا في مقابلة شيء وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] ولأنه تقرير للناذر على شركه وقبح اعتقاده، ولأنه =

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٢)؛ ومسلم (١٦٣٩).

....

= دليل على رضاه بذلك، ولا يخفى حكم الراضي بالشرك أنه مشرك.

والمؤلف قدم الأول وهو قبض النذر وهو معصية، على الثاني وهو صرف النذر لغير الله، وهو شرك. والأولى أن يقدم الثاني على الأول لكن إذا رضي القابض للنذر وأقره عليه صار مشركاً.

وقول المؤلف: «فهو مثل حلوان الكاهن ومهر البغي»، حلوان الكاهن أجرته على الكهانة، ومهر البغي يعني الزانية، المال الذي يعطى للزانية على الزنا، وأجرة الكهانة حرام، فكذلك هذه النذور حرام؛ «ولأنه تدليس على الناذر وإيهام له أن الولي ينفعه ويضره»؛ يعني: إذا قبض النذر وسكت أوهم الناذر أن الولي ينفع ويضر، فأي تقرير لمنكر أعظم من قبض النذر على الميت؟ وأي تدليس أعظم؟ وأي رضا بالمعصية العظمى أبلغ من هذا؟

صدق رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا إقرار للشرك، وإقرار لأعظم المنكرات، وهو شرك، وتدليس وإيهام للناذر بأنه على حق، وأنه ما فعله ينفعه، وأي رضا بالمعصية العظمى أبلغ من هذا! وأي تصيير للمنكر معروفاً أعجب من هذا؟!

وصدق المؤلف في **قوله**: «وما كانت النذور للأصنام والأوثان إلا على هذا الأسلوب».. نعم، ما يفعله عباد القبور مثل ما يفعله أصحاب الأصنام والأوثان، «يعتقد الناذر جلب النفع في الصنم ودفع الضرر»، فيعتقد مثلاً أنه يشفع له عند الله، ويقضي حوائجه؛ لأن بيده النفع والضر ويقاسمه في غلات أطيانه؛ يعني غلات مزرعته ويأتي به إلى سدنة الأصنام فيقبضونه منه. أي يقبضون منه النذر، ويوهمونه بحقية عقيدته، وكذلك يأتي ببحيرته، والبحيرة هي: الناقة التي تلد خمسة أبطن آخرها ذكر ويشقون أذنها ويمنعون من ركوبها وذبحها ويتركونها للأصنام فينحرها عند باب الصنم، فما يفعله عباد لقبور مثل ما يفعله عباد الأصنام، وهذه الأفعال هي التي بعث الله الرسل لإزالتها ومحوها وإتلافها والنهي عنها.

فإن قلتَ: إنَّ الناذر قد يُدركُ النفعَ ودفع الضرر بسبب إخراجه للنذر وبذله![١].

قلتُ: كذلك الأصنام، قد يدرك منها ما هو أبلغُ من هذا، وهو الخطاب من جَوفها والإخبار ببعض ما يكتمه الإنسان، فإن كان هذا دليلاً على حقيَّة القبور وصحة الاعتقاد فيها؛ فليكن دليلاً على حقيَّة الأصنام، وهذا هدمٌ للإسلام وتشييدٌ لأركان الأصنام[٢].

---

[١] هذه شبهة، من الشبهات أوردها المؤلف وأجاب عنها بقوله: إن الناذر الذي ينذر لأصحاب القبور يجد نفعاً أحياناً، فينذر له أن يرد غائبه فيأتي غائبه ويرده الله أحياناً. ويدفع النذر ليشفى مريضه فيشفى مريضه أحياناً، وحصل النفع في الظاهر في بعض الأحيان.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أجاب بقوله: إن هذه الشبهة هي شبهة عُبَّاد الأصنام، وذلك أنه إذا نذر الناذر لصاحب القبر أو للصنم فشفى الله مريضه أو رد غائبه فهذا من باب الابتلاء والامتحان حيث صادف القدر ووافق القدر، فظن الذي نذر للقبر أنه بسبب النذر، وكذلك الذي رد الله غائبه قد وافق القدر فظن الذي نذر للقبر أنه بسبب النذر وهو قضاء وقدر.

[٢] ويقول المؤلف: إذا قلت: أن الذي ينذر يجد بعض النفع ودفع الضرر، فكذلك عُبَّاد الأصنام ينتفعون منها، فإن الشياطين قد تدخل في جوف الأصنام وتخاطب الناس وتستجيب لمطالبهم فيدخل الشيطان في الصنم ويشجع ويغري الناس بالشرك فيقول: افعل كذا وسأفعل كذا وسأقضي لك كذا.

فإذا كان مجرد النفع يدل على صحتها، فعباد الأصنام يحصل لهم كذلك، تخاطبهم الشياطين من جوف الأصنام وتقضي لهم بعض الحوائج، فإن كان هذا دليلاً على حقية القبور وصحة الاعتقاد فيها فليكن دليلاً على حقية الأصنام، وهذا هدم للإسلام وتشييد لأركان الأصنام.

والتحقيقُ: أنَّ لإبليسَ وجنوده من الجنِّ والإنس أعظمَ العناية في إضلال العباد، وقد مكَّن اللهُ إبليس من الدخول في الأبدان والوسوسة في الصدور والتقام القلب بخرطومه، وكذلك يدخل أجواف الأصنام ويُلقي الكلامَ في أسماع الأقوام، ومثله يَصنعه في عقائد القبوريِّين، فإنَّ الله تعالى قد أذن له أن يُجلب بخيلِه ورَجِلِه على بني آدم وأن يشاركهم في الأموال والأولاد.

وثبت في الأحاديث: أنَّ الشيطانَ يستَرق السمعَ بالأمر الذي يُحدثه الله، فيُلقيه إلى الكُهَّان، وهم الذين يُخبرون بالمغيَّبات ويزيدون فيما يلقيه الشيطان من عند أنفسهم مائة كذبة.

ويقصدُ شياطينُ الجنِّ شياطينَ الإنس مِن سَدَنة القبور وغيرهم فيقولون: إنَّ الوليَّ فَعَل وفعل، يُرغِّبونهم فيه ويحذِّرونهم منه، وترى العامة ملوكَ الأقطار وولاةَ الأمصار مُعزِّزين لذلك ويُوَلُّون العمالَ لقبض النذور، وقد يتَولَّاها مَن يُحسنون فيه الظنَّ مِن عالم أو قاضٍ أو مُفت أو شيخ صوفي، فيتِمُّ التدليسُ لإبليس، وتقرُّ عينُه بهذا التلبيس[١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «والتحقيق أن لإبليس وجنوده من الجن والإنس أعظم العناية في اضلال العباد، وقد مكن الله إبليس من الدخول في الأبدان والوسوسة في الصدور، والتقام القلب بخرطومه، وكذلك يدخل أجواف الأصنام ويلقي الكلام في أسماع الأقوام، ومثله يصنعه في عقائد القبوريين».

والمعنى: أن الله تعالى سلط إبليس وجنوده على بني آدم، ومن ذلك أن الله سلطهم على أبدان بني آدم، يدخل البدن ويوسوس كما قال الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٤ ـ ٦] فهو يوسوس في الصدور، وفي =

....

= الحديث: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[١].

وقد مكن الله لإبليس من الدخول في الأبدان والوسوسة في الصدور والتقام القلب بخرطومه، فهذا ابتلاء وامتحان، يوسوس لهم ويحسن لهم ويزين لهم أنهم استفادوا وأنه حصل لهم نفع من أصحاب القبور.

كما أن الشيطان يدخل أجواف الأصنام ويلقي الكلام في أسماع الأقوام، ويتكلم معهم، ويقضي لهم الحوائج ويخاطبهم، ومثله يصنعه في عقائد القبوريين، فإن الله تعالى قد أذن للشيطان أن يجلب بخيله ورجله على بني آدم يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤] وابتلاء وامتحان.

وقد جاء في الأحاديث «أن الشياطين يركب بضعها بعضاً، وأنها تسترق السمع، وأن الله ـ تعالى ـ إذا تكلم بالوحي وبلغ السماء الدنيا ثم يتكلم الملائكة الذين في السحاب بالأمر الذي قضاه الله، فيسمعه أعلى الشياطين فيلقيه إلى من تحته فيلقي كل شيطان إلى من تحته ويلقيه الآخر من تحته، حتى تصل إلى الشيطان الذي في الأرض فيلقيه في أذن الكاهن، كما جاء في الحديث يقرّها في أذن وليه قرّ الدجاجة يقرقرها»[٢]. وإذا وصلت إلى أذن الكاهن كذب معها مائة كذبة، ثم يخبر الناس بهذا الكذب، واحدة سُمِعت من السماء حق والباقي كذب، فيصدقه الناس، والشهب تلاحقهم تحرقهم، أحياناً تحرق الشيطان قبل أن يلقي هذه الكلمة في أذن الكاهن، وأحياناً يلقيها ثم يأتيه الشهاب[٣]، والشياطين يولد لهم عدد كثير، هؤلاء يحرقهم الله بالشهاب، وهؤلاء يولدون، وكل إنسان معه قرين كما جاء في الحديث[٤]. =

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١)؛ ومسلم (٢١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦١)؛ ومسلم (٢٢٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

....

= وهذا المعنى الذي أشار إليه المؤلف عن الذين يخبرون بالمغيبات ويزيدون فيما يلقيه الشيطان من عند أنفسهم مائة كذبة، ويقصد شياطين الجن شياطين الإنس من سدنة القبور وغيرهم، فيقولون: إن الولي فعل وفعل يرغبونهم بالولي إذا كان من الأحياء وكان كاهناً؛ لأن الشياطين تلقي عليهم هذه الكلمات فيتحدث شياطين الإنس أن الولي فعل كذا وفعل كذا حتى يعبده الناس من دون الله، وترى العامة ملوك الأقطار وولاة الأمصار معززين لذلك، ويولون العمال لقبض النذور.. يعني العوام يرون الملوك وأصحاب الأمصار يعززون سدنة القبور وأصحاب القبور الذين يذبحون لهم وينذرون لهم ويحثونهم على النذور، وتجد بعض علماء الشرك يأتي عند القبر ويشجع الناس، ويقول: هذا ينفع وهذا محبة للصالحين، فيغري الناس بالشرك، فيغتر العامة ويظنون أن هذا حق وتجد بعض الملوك يولي العمال حتى تقبض النذور؛ لأنهم يستفيدون من هذه الأموال التي توضع عند قبر فلان وقبر فلان، وتجد الدولة تأخذ هذه الأموال وتستفيد من هذه النذور وتنفقها في مصالحها، فلهذا يشجعون هؤلاء المشركين على النذور.

وقد يتولاها من يحسنون الظن به من عالم أو قاض أو مفتٍ أو شيخ صوفي؛ أي: قد يكون هذا العالم عالم شرك وقاضي شرك، ومفتي للمشركين، أو شيخ صوفي من صوفية الضلال فيتم التدليس لإبليس.. وتقر عينه بهذا التلبيس، نسأل الله العافية والسلامة.

فإن قلتَ: هذا أمرٌ عَمَّ البلادَ واجتمعت عليه سكان الأعوار والأنجاد[١].

---

[١] يذكر المؤلف سلسلة من الشبهات والأسئلة التي يوردها بعض عُبَّاد القبور يشبهون بها على الناس، ثم يجيب عنها، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن قلت: هذا أمر عمَّ البلاد يعني: وجود القبور والمشاهد ووجود من يطوفون حول القبور وينذرون لها «هذا أمر عم البلاد، واجتمع عليه سكان الأغوار والأنجاد»؛ يعني: اجتمع عليه سكان المرتفعات والمنخفضات، فالأغوار: جمع غور، وهو ما انخفض من الأرض.

والأنجاد: جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض، واجتمع الناس عليه كل مَن في البوادي ومَن في الأودية، ومن فوق الجبال كلهم، استمروا على هذا الأمر، من القبور التي تعظم وينذر لها ويذبح لها.

وطبَّق الأرض شرقاً وغرباً، ويَمناً وشاماً، وجنوباً وعَدَناً، بحيث لا تجدُ بلدةً من بلاد الإسلام إلَّا وفيها قبور ومشاهد وأحياء، يعتقدون فيها ويعظِّمونها وينذرون لها، ويهتفون بأسمائها ويحلفون بها، ويطوفون بفناء القبور، ويُسرجونها ويلقون عليها الأوراد والرياحين ويُلبسونها الثياب، ويصنعون كلَّ أمر يقدرون عليه من العبادة لها، وما في معناها من التعظيم والخضوع والخشوع والتذلُّل والافتقار إليها[١].

---

[١] **وقول المؤلف**: «وطبق الأرض شرقاً وغرباً، ويمناً وشاماً وجنوباً وعدناً». . إلخ.

أي: كلها موجودة فيها قبور لا تجد بلدة من بلاد الإسلام إلا وفيها قبور ومشاهد وأحياء يعتقدون فيها ويعظمونها وينذرون لها كأن يقول لصاحب القبر: لك كذا وكذا إن شفي مريضي، ويهتفون بأسمائها، ويحلفون بها، ويطوفون بفناء القبور، ويسرجونها؛ يعني: يضعون عليها السرج والأنوار، وهذا من وسائل الشرك، وكذلك وضع القباب على القبور وإسراجها، وإلقاء الأوراد والرياحين، الأوراد: جمع ورد، فهذه كلها دعوة للشرك، ووسيلة من وسائله وكذلك الكتابة عليها، ويلبسونها الثياب، ويصنعون كل أمر يقدرون عليه من العبادة لها وما في معناها من التعظيم والخشوع والخضوع والتذلل والافتقار إليها.

بل هذه مساجد المسلمين غالبُها لا يخلو عن قبر أو قريب منه، أو مَشهد يقصده المصلُّون في أوقات الصلاة، يَصنعون فيه ما ذكِر أو بعض ما ذكر[١].

---

[١] **يقول المؤلف:** «بل هذه مساجد المسلمين غالبها لا يخلو عن قبر أو قريب منه أو مشهد يقصده المصلون في أوقات الصلوات، يصنعون فيها ما ذكر أو بعض ما ذكر».. وهذا موجود الآن في العصر الحاضر في الغالب؛ أي بلد تأتيه تجد هذه الصور والمشاهد.

والقليل من المساجد التي تسلم من هذه القبور والمشاهد. إلا بلاد الحرمين فليس فيها قبر أو مشهد يعبد أو يطاف به. والحمد لله على نعمه الإسلام

ولا يَسَعُ عقلُ عاقل أنَّ هذا منكرٌ يبلُغُ إلى ما ذكرتَ مِن الشناعة، **ويَسكتُ عليه علماءُ الإسلام الذين ثبَتت لهم الوَطأة في جميع جهات الدنيا**[١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة».. إلخ.

يقول: كيف تقول: إن هذا منكر، والآن الأمر عم البلاد، فالناس ما تقبل عقولهم هذا، ولا يوافقونكم على أن هذا منكر، وأنه بلغ من الشناعة أن يكون من المنكرات الكفرية، مع سكوت علماء الإسلام الذين ثبتت لهم الوطأة في جميع جهات الدنيا عليه وعدم إنكاره.

قلتُ: إن أردتَ العدلَ والإنصافَ، وتركتَ متابعة الأسلاف، وعرفتَ أنَّ الحقَّ ما قام عليه الدليلُ، لا ما اتَّفق عليه العوالِم جيلاً بعد جيل، وقَبيلاً بعد قبيل، فاعلم أنَّ هذه الأمور التي ندَندِنُ حولَ إنكارِها، ونسعى في هَدم منارها، صادرةٌ عن العامة الذين إسلامهم تقليدُ الآباء بلا دليل، ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دبير وقبيل، ينشأ الواحدُ فيهم فيجِدُ أهلَ قريته وأصحاب بلدته يُلَقِّنُونه في الطفولية أن يَهتِفَ باسم مَن يعتقدون فيه، ويراهم يَنذرون عليه، ويعظِّمونه، ويرحلون به إلى مَحلِّ قبره، ويلطخونه بترابه، ويجعلونه طائفاً على قبره، فيَنشأ وقد قَرَّ في قلبه عظمةُ ما يعظِّمونه، وقد صار أعظم الأشياء عنده مَن يعتقدونه.

فنشأ على هذا الصغير، وشاخَ عليه الكبيرُ، ولا يسمعون مِن أحد عليهم من نكير[١].

---

[١] الجواب: **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: «قلت: إن أردت الإنصاف وتركت متابعة الأسلاف، وعرفت بأن الحق ما قام عليه الدليل لا ما اتفق عليه العوالم»، فاعلم أن هذه الأمور شركية وعليك أن تتجرد من التقليد والتبعية للآباء والأجداد؛ لأنها طريقة المشركين، فالحق ما قام عليه الدليل لا ما اتفق عليه الناس وتواطؤوا عليه، وهذا الأمر اتفق عليه الناس ولكن النصوص تخالفه وكلها تدل على قبحه وشناعته.

يقول المؤلف: «فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها» من الذبح لغير الله والنذر والدعاء والطواف والتعظيم بغير الله «ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة»، فهي صدرت عن العوام وما صدرت عن العلماء، هل وجدت عالماً يطوف حول القبور أو يذبح أو ينذر لها؟ بل لا يفعل هذا إلا العوام والعوام جهّال، فهذه صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد للآباء =

....

= بلا دليل ومتابعتهم لهم من غير تفريق بين المحق والمبطل، «ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته وأصحاب بلدته يلقنونه في الطفولة أن يهتف باسم من يعتقدون فيه، ويراهم ينذرون عليه ويعظمونه ويرحلون به إلى محل قبره ويلطخونه بترابه، ويجعلون طائفاً على قبره فيفعل مثل فعلهم؛ فينشأ وقد قر في قلبه عظمة ما يعظمونه، وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه، فنشأ على هذا الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير»، فاستمروا على هذه الأفعال الشركية.

بل تَرَى مِمَّن يتَّسِم بالعلمِ، ويَدَّعِي الفضلَ، وينتصب للقضاء والفتيا والتدريس، أو الولاية أو المعرفة أو الإمارة والحكومة، معظِّماً لِمَا يعظِّمونه، مُكرماً لِما يكرمونه، قابضاً للنذور، آكلاً ما يُنحر على القبور، فيَظنُّ العامَّة أنَّ هذا دينُ الإسلام، وأنَّه رأسُ الدِّين والسَّنَام[١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «بل ترى مَنْ يتسم بالعلم ويدعي الفضيلة وينتصب للقضاء والفتيا والتدريس أو الولاية أو المعرفة أو الإمارة والحكومة معظماً لما يعظمونه»، هذا من المصائب فهناك علماء من أهل الشرك يشجعون العامة على الشرك ويحثونهم عليه، فهؤلاء لا عبرة بهم، إنما العبرة بعلماء الحق علماء الشريعة، علماء الكتاب والسنّة، العلماء أهل العلم والعمل، أما العلماء المنحرفون فلا عبرة بهم، فاليهود فيهم علماء، والنصارى فيهم علماء، ولكنهم علماء ضلال.

يقول المؤلف: «ترى هذا الذي يتسم بالعلم ويدعي الفضيلة... معظماً لما يعظمونه مكرماً لما يكرمونه، قابضاً للنذور» إقراراً على الشرك، «آكلاً ما ينحر على القبور»، وهي ذبيحة شركية، فكيف تؤكل؟ فالتي تذبح لصاحب القبر ميتة حرام أكلها، فيأكلها من يتسم بالعلم من علماء الضلال، «فيظن العامة أن هذا دين الإسلام، وأنه رأس الدين والسنام»، ولا يخفى على أحد من أهل النظر، ويعرف شيئاً من علم الكتاب والسنة والأثر، أن سكوت العالِم على وقوع منكر، ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر؛ لأن الإنسان قد يكون ساكتاً؛ لأنه عاجز عن الإنكار باللسان؛ لأن الإنكار يكون باليد ثم باللسان ثم بالقلب، فقد يكون هذا الذي سكت من العلماء ليس عنده استطاعة لتغييره باللسان؛ لأنه يخشى أن يصيبه ضرر في دينه أو ماله ففي هذه الحالة يكون إنكاره بقلبه ويكون معذوراً عن الإنكار باللسان.

ولا يَخفى على أحد يتأهَّل للنظر، ويعرفُ بارِقَةً مِن عِلم الكتاب والسنة والأثر، أنَّ سكوتَ العالِم أو العالَم على وقوع مُنكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر.

ولنضْرِبْ لك مثلاً مِن ذلك؛ وهي هذه المكُوسُ المسمَّاة بالمجابي، المعلوم مِن ضَرورة الدِّين تَحريمُها، قد مَلأَت الدِّيارَ والبقاع، وصارت أمراً مأنوساً، لا يلج إنكارُها إلى سَمع مِن الأسماع، وقد امتدَّت أيدي المكَّاسين في أشرف البقاع، في مكة أمِّ القرى، يَقبضون مِن القاصدين لأداء فَريضة الإسلام، ويلقون في البلد الحرام كلَّ فِعل حرام، وسُكَّانها مِن فُضلاء الأنام، والعلماءُ والحكَّامُ ساكتون على الإنكار، مُعرضون عن الإيراد والإصدار، أَفيَكون السكوتُ من العلماء، بل من العالم دليلاً على حِلِّ أخذها وإحرازها؟ هذا لا يقولُه مَن له أدنى إدراك.

بل أضرب لك مثلاً آخر؛ هذا حَرَمُ الله الذي هو أفضلُ بقاع الدنيا بالاتفاق وإجماع العلماء، أحدَث فيه بعضُ ملوك الشراكسة الجهلة الضُّلال هذه المقامات الأربعة، التي فرَّقت عبادات العِباد، واشتملت على ما لا يُحصيه إلَّا الله ﷻ من الفساد، وفرَّقت عبادات المسلمين، وصيَّرتهم كالمِلَلِ المختلفة في الدِّين، بدعةٌ قرَّت بها عينُ إبليس اللعين، وصيَّرت المسلمين ضحكةَ الشياطين، وقد سكتَ الناسُ عليها، ووفَد علماء الآفاق والأبدال والأقطاب إليها، وشاهدها كلُّ ذي عينين، وسَمع بها كلُّ ذي أذنين.

أفهذا السكوت دليلٌ على جوازها؟ هذا لا يقولُه مَن له إلْمَامٌ

بشيء من المعارف، كذلك سكوتُهم على هذه الأشياء الصادرة من القبوريِّين[١].

---

[١] المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن هذه القبور التي انتشرت في البلدان، ويطوف حولها العامة وينذرون لها ويذبحون لها ويعملون الأعمال الشركية، وسكوت العلماء عليها ليس دليلاً على جوازها؛ لأن العالم قد يسكت لعجزه عن الإنكار، وضرب المؤلف مثلين لمنكَرَيْن منتشريَن في زمانه، ولم ينكرهما العلماء مع أنهما حرام بالكتاب والسنة، وتحريمهما معلوم من الدين بالضرورة، ومع ذلك فالعلماء سكتوا، فكذلك سكوتهم عن إنكار ما يفعله القبوريون ليس دليلاً على حِله وجوازه، بل سكوتهم سببه عجزهم.

المثال الأول: المكوس: وهي الضرائب التي تُجبى بغير حق، وذلك ما يسمى بالجمارك، وهذه المكوس التي تؤخذ على الحُجّاج في زمان المؤلف، سنة ألف ومائة ـ أي قبل ثلاث مائة سنة ـ يقول: إن الحُجّاج الذين يدخلون مكة تؤخذ عليهم ضرائب، وهذه الضرائب هي المكوس وهي حرام، ومع ذلك سكت العلماء عليها، فليس سكوتهم دليلاً على أنها مباحة، بل المكوس محرمة بالكتاب والسنة، حتى إن النبي ﷺ قال في الزانية التي زنت وتابت قال: «**لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغُفر له**»(١) ومع ذلك سكت العلماء، وسكوت العلماء لا يدل على جوازها.

والمثال الثاني: المقامات التي في المسجد الحرام في زمانه، كان في زمن المؤلف يوجد في المسجد الحرام أربع مقامات: المقام الحنفي، والمقام الشافعي، والمقام المالكي، والمقام الحنبلي، وكل مقام يؤمه إمام في كل صلاة، الحنفي يصلي وراءه الأحناف، والشافعي يصلي وراءه الشافعية والمالكي يصلي وراءه المالكية والحنبلي يصلي وراءه الحنابلة، ويكون ذلك في وقت واحد يصلي أربعة أئمة وأربع جماعات، فهذا منكر وبدعة قرت بها عين =

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

....

= إبليس، وفُرّقت الأمة، وجعلت الناس كأنهم يدينون بأربعة أديان، فإن وجود أربعة أئمة في مسجد واحد يؤمون الناس في وقت واحد بدعة شنيعة منكرة. ومع ذلك سكت العلماء عنها وسكوت العلماء عليها ليس دليلاً على جوازها، هذا على حد كلام المؤلف. ويقال للمؤلف رحمه الله: إن من العلماء من سكتوا ومنهم من تكلم وبين وإن لم يعلمه الناس كلهم.

والصحيح أيضاً أن العلماء ما سكتوا على ما يفعل عند القبور بل بينوا، ولا يزال العلماء يعظون ويدعون ويحذرون من الشرك، بل يؤلفون ويخطبون ويكتبون وينكرون في زمان المؤلف وقبله وبعده، وكذلك المكوس ما زال العلماء يبينون أنها محرمة وكذلك أيضاً المقامات الأربع أنكرها بعض العلماء في المسجد الحرام، وكانت المقامات موجودة حتى تولى الملك عبد العزيز رحمه الله الحكم في الحجاز، فأزال هذه المقامات الأربع وألغى الأئمة الأربعة وجعل للمسجد الحرام إماماً واحداً يؤم المصلين، واجتمعت عليه الكلمة، وهذه من الحسنات التي تُحسب للملك عبد العزيز رحمه الله، وكان هذا بفتوى من العلماء أهل البصيرة في زمانه رحم الله الجميع.

وقول المؤلف رحمه الله: «والعلماء ساكتون عن الإنكار»، يقال للمؤلف: بل العلماء بينوا لكن كون البيان لم ينتشر أو كون كثير من الناس لم يبلغه البيان ليس دليلاً على أنهم لم ينكروا بل العلماء أنكروا في زمانهم ولكن لا يستطيعون إزالتها؛ لأن هذا يحتاج إلى قوة. وهي بيد السلاطين فهم الذين يمنعون الناس، أما العلماء فبيدهم البيان والإيضاح، وقد يكون في بعض الأزمنة والأمكنة من لا يستطيع الإنكار باللسان من العلماء؛ لأنه يهدد من قبل علماء السوء وحكام السوء لو تكلم، فيكون معذوراً في هذه الحالة وينكر بقلبه ويكون غيره قد أنكر بلسانه فحصل البيان من بعض العلماء فقامت الحجة وزالت المعذرة.

وقول المؤلف: «وقد سكت الناس عنه ووفد علماء الآفاق والأبدال والأقطاب إليها»، مراد المؤلف رحمه الله بالأبدال العلماء الذين يخلف بعضهم =

....

= بعضاً[١]. وليس المراد بالأقطاب والأبدال عند الصوفية الذين يزعمون أن لهم التصرف في الكون بل مراد المؤلف علماء الشريعة وعلماء الحق، الذين يخلف بعضهم بعضاً، والأقطاب الذين لهم مكانة في الدين، والواقع أنهم لم يسكتوا، بل في كل زمان هناك من ينكر المنكر وتقوم الحجة به على الناس، وكذلك الشركيات الصادرة من القبوريين كما سبق أن العلماء لم يسكتوا، فالعلماء بينوا، ولكن العلماء لهم أحوال منهم من يستطيع أن يبين ومنهم من لا يستطيع، فيكون معذوراً وقامت الحجة بمن يبيّن منهم.

---

(١) كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في العقيدة الواسطية ص(٣٢).

فإن قلتَ: يَلزمُ مِن هذا أنَّ الأمَّة قد اجتمعت على ضلالة، حيث سكتت عن إنكارِها لأعظم جهالة.

قلتُ: حقيقةُ الإجماع اتفاقُ مجتهدي أمَّة محمد ﷺ على أمر بعد عصره، وفقهاءُ المذاهب الأربعة يُحيلون الاجتهاد من بعد الأربعة، وإن كان هذا قولاً باطلاً وكلاماً لا يقوله إلَّا مَن كان للحقائق جاهلاً، فعلى زعمهم لا إجماع أبداً مِن بعد الأئمة الأربعة، فلا يرد السؤال؛ فإنَّ هذا الابتداعَ والفتنةَ بالقبور لم يكن على عهد أئمَّة المذاهب الأربعة، وعلى ما نحققه فالإجماع وقوعه محال.

فإنَّ الأمَّة المحمدية قد ملأت الآفاق، وصارت في كلِّ أرض وتحت كلِّ نجم، فعلماؤها المحقِّقون لا ينحصرون، ولا يَتِمُّ لأحد معرفة أحوالهم، فمَن ادَّعى الإجماعَ بعد انتشار الدِّين وكثرة علماء المسلمين فإنَّها دعوى كاذبة، كما قال أئمَّة التحقيق.

ثمَّ لو فُرض أنَّهم عَلِمُوا بالمنكر وما أنكروه، بل سكتوا عن إنكاره، لَمَا دلَّ سكوتُهم على جوازه؛ فإنَّه قد عُلِم من وقواعد الشريعة أنَّ وظائفَ الإنكار ثلاثةٌ:

أوَّلها: الإنكارُ باليد، وذلك بتغيير المنكر وإزالته.

ثانيها: الإنكارُ باللسان مع عدم استطاعة التغيير باليد.

ثالثها: الإنكارُ بالقلب عند عدم استطاعة التغيير باليد واللسان.

فإن انتفى أحدُها لم ينتفِ الآخر، ومثاله: مُرورُ فرد من أفراد علماء الدِّين بأحد المكَّاسين وهو يأخذ أموالَ المظلومين، فهذا الفردُ مِن علماء الدِّين لا يستطيع التغييرَ على هذا الذي يأخذ أموالَ

المساكين باليد ولا باللسان؛ لأنَّه إنَّما يكون سخريةً لأهل العصيان، فانتفى شرطُ الإنكار بالوظيفتين، ولَم يبق إلَّا الإنكارُ بالقلب الذي هو أضعفُ الإيمان، فيجب على مَن رأى ذلك العالِمَ ساكتاً عن الإنكار مشاهدة ما يأخذه ذلك الجبَّار، أن يعتقدَ أنَّه تعذَّر عليه الإنكارُ باليد واللسان، وأنَّه قد أنكر بقلبه.

فإنَّ حُسنَ الظنِّ بالمسلمين أهلِ الدِّين واجبٌ، والتأويل لهم ما أمْكَنَ ضَربةُ لازب، فالداخلون إلى الحَرم الشريف، والمشاهدون لتلك الأبنية الشيطانية التي فرَّقت شملَ الدِّين، وشتَّتت صلوات المسلمين معذورون عن الإنكار إلَّا بالقلب، كالمارِّين على المكَّاسين وعلى القبوريِّين[١].

---

[١] المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يورد سؤالاً ثم يجيب عنه، **فيقول**: «إن قلتَ: يلزم من هذا أن الأمة قد اجتمعت على ضلالة؛ حيث سكتت عن إنكارها لأعظم الجهالة»؛ أي إن قلت: إن العلماء سكتوا رغم انتشار القبور ووجود المقامات في المسجد الحرام فيلزم من هذا، أن الأمة قد اجتمعت على ضلالة، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لا تجتمع أمتي على ضلالة**»(١).

والجواب على ذلك:

أن العلماء لم يسكتوا، وإنما بينوا، ولكن العلماء يختلفون منهم من يستطيع أن ينكر، ومنهم من لم يستطع، فيكون معذوراً وينكر بقلبه، ومن أنكر قامت به الحجة، وعليه فلم تجتمع الأمة على ضلالة لأن حقيقة الإجماع =

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٧)؛ وابن ماجه (٣٩٥٠)، وقال المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٤٥): قال ابن حجر: له شاهد عند الحاكم من حديث ابن عباس بلفظ: «لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة، ويد الله مع الجماعة» ورجاله رجال الصحيح إلا إبراهيم بن ميمون.

....

= اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ على أمر بعد عصره، أي أن يجتمع العلماء المجتهدون بعد عصر النبي ﷺ على شيء، أما في عصر النبي ﷺ فالحجة في كلام الله وكلام رسوله، ولكن بعد وفاة النبي ﷺ إذا اجتمعت الأمة على شيء، صار إجماعاً، لا يجوز مخالفته.

ويقول المؤلف: «وفقهاء المذاهب الأربعة يحيلون الاجتهاد من بعد الأربعة»؛ يعني: بعد الأئمة والأربعة لا يوجد إجماع وأنه مستحيل لماذا؟ لأن العلماء انتشروا في الأمصار ولا يمكن أخذ قولهم.

فالقول بأنهم أجمعوا ليس بصحيح؛ لأنك لو أحصيت بعض الأقوال في الشام وفي مصر وفي مكة وفي المدينة وفي نجد فإنك لا تستطيع أن تحصر العلماء كلهم، وقد تجد عالماً في بيته لم يبدِ رأيه ولا قوله بل قد لا يعلم عنه أحد، فكيف يكون إجماعاً؟

وعليه فإن هذا الابتداع والفتنة بالقبور لم يكن على عهد أئمة المذاهب الأربعة، فإن القبور ما حصلت إلا بعد الأئمة الأربعة والفقهاء لا يقولون بالإجماع بعد الأئمة الأربعة وعليه فلم تجتمع الأمة على ضلالة، والمؤلف يقول على ما نحققه فالإجماع وقوعه محال كما قال أئمة التحقيق، يقولون إن من ادعى الإجماع فهو كاذب بعد انتشار العلماء في كل مكان، وبعض العلماء يقولون: يمكن الإجماع، ولهذا فإن الأصوليين ذكروا أن الإجماع اتفاق مجتهدي العصر، وقالوا: الإجماع يكون في كل زمان، وقد ثبت عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: من ادعى الإجماع فهو كاذب[1]. يعني: بعد الصحابة.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإجماع الذي ينضبط هو إجماع الصحابة[2]؛ لأن الصحابة محصورون أما بعد عصر الصحابة فالعلماء كثروا وانتشروا في الآفاق، فلا يمكن أخذ أقوالهم، أما في عصر الصحابة فيمكن =

---

(١) الواضح في أصول الفقه (٥/ ١٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٧).

....

=أخذ أقوالهم فالإمام أحمد يرى أن الإجماع الذي ينضبط هو إجماع الصحابة، وأما بعد الصحابة فليس هناك إجماع، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: من ادعى الإجماع فهو كاذب؛ يعني بعد عصر الصحابة؛ لأن العلماء انتشروا ولا يمكن أخذ أقوالهم، وهناك من أهل العلم من قال: إنه يمكن الإجماع في كل عصر، وقال: إن الإجماع هو اتفاق مجتهدي العصر على أمر، فإذا انقرض العصر ولم يخالف أحد ثبت الإجماع.

ثم يقول المؤلف: «ثم لو فرض أنهم علموا بالمنكر وما أنكروه، بل سكتوا عن إنكاره لما دل سكوتهم على جوازه، فإنه قد علم من قواعد الشريعة أن وظائف الإنكار ثلاثة»:

أولها: «الإنكار باليد وذلك بتغيير المنكر وإزالته».

ثانيها: «الإنكار باللسان مع عدم استطاعة التغيير».

وثالثها: «الإنكار بالقلب عند عدم استطاعة التغيير باليد واللسان، فإن انتفى أحدها لم ينتف الآخر» كما دل عليه حديث أبي سعيد الذي رواه الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(١)].

فمراتب الإنكار ثلاثة، فلو قلنا: إن العلماء سكتوا لقلنا: إنهم عجزوا عن الوظيفة الأولى، وعن الوظيفة الثانية؛ أي: عجزوا عن الإنكار باليد، وعجزوا عن الإنكار باللسان ولكنهم أنكروا بالقلب، فلا يكون سكوتهم عن الإنكار باليد ثم باللسان حجة؛ لأنهم أنكروا بقلوبهم.

ومثّل المؤلف فقال: مثاله لو مرّ أحد العلماء بالمَكّاس الذي يأخذ الضرائب على المظلومين وسكت، هل يكون سكوته دليلاً على جوازه وهو لا يستطيع الإنكار ومن جهة أخرى نقول: هذا إذا كان يخشى أن يصيبه ضرر في بدنه أو ماله فإنه يسقط عنه الإنكار. وأما إذا كان لا يخشى فقد ينكر باللسان، وإن لم ينكر هو فقد أنكر غيره. =

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

....

= يقول المؤلف: فيجب على من رأى ذلك العالم ساكتاً عن الإنكار لمشاهدة ما يأخذه ذلك الجبار الذي يأخذ الضرائب أن يعتقد أنه تعذّر عليه الإنكار باليد واللسان، وأنه قد أنكر بقلبه، فإن حُسن الظن بالمسلمين أهل الدين واجب، والتأويل لهم ما أمكن ضربة لازب.

ثم **يقول المؤلف**: «فالداخلون إلى الحرم الشريف والمشاهدون لتلك الأبنية الشيطانية» والمراد المقامات الأربعة، كل واحد له بناية، المقام الشافعي، المقام الحنفي، المقام المالكي والمقام الحنبلي.

الذي يدخل المسجد الحرام ويشاهد هذه الأبنية الشيطانية التي فرقت شمل الدين، وشتت صلوات المسلمين فإنهم معذورون عن الإنكار إلا بالقلب كالمارين على المكاسين لأنهم لا يستطيعون أن ينكروا، لكن نقول للمؤلف: إن هناك من العلماء من أنكر وليس كل الذين دخلوا المسجد الحرام لم ينكروا. بل هناك من أنكر باللسان ولكن لم يقبل منه فهذا أدّى ما عليه من واجب الإنكار وبرئت ذمته بذلك.

ومِن هنا يُعلم اختلال ما استمرَّ عند أئمَّة الاستدلال مِن قولهم في بعض ما يستدلُّون عليه بالإجماع: إنَّه وقع ولَم يُنكر، فكان إجماعاً.

ووجهُ اختلالِه أنَّ قولَهم: (ولَم يُنكَر) رجمٌ بالغيب؛ فإنه قد يكون أنكرته قلوبٌ كثيرة تعذَّر عليها الإنكارُ باليد واللسان، وأنت تشاهد في زمانك أنَّه كم مِن أمر يَقع لا تنكره بلسانك ولا بيدك، وأنت مُنكرٌ له بقلبك، ويقول الجاهلُ إذا رآك تشاهده: سكت فلانٌ عن الإنكار، يقوله إما لائماً أو مُتَأسِّياً بسكوته، فالسكوتُ لا يستدلُّ به عارف، وكذا يُعلم اختلالُ قولهم في الاستدلال: (فعلَ فلان كذا، وسكت الباقون فكان إجماعاً)، مُختلًّا من جهتين:

الأولى: دعوى أنَّ سكوتَ الباقين تقريرٌ لفعل فلان؛ لِمَا عرفتَ مِن عدم دلالة السكوت على التقرير.

الثانية: قولهم: (فكان إجماعاً)؛ فإنَّ الإجماعَ اتفاقُ مجتهدي أمَّة محمد، والساكتُ لا يُنسب إليه وِفاق ولا خلاف، حتَّى يُعْرِبَ عنه لسانُه.

قال بعض الملوك ـ وقد أثنى الحاضرون على شخص من عمَّاله وفيهم رجل ساكت ـ: ما لَك لا تقول كما يقولون؟ فقال: إن تكلَّمتُ خالفتهم.

فما كلُّ سكوت رضًى؛ فإنَّ هذه منكراتٌ أسَّسَها مَن بيده السيفُ والسِّنان، ودماءُ العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه، وأعراضهم تحت قوله وكلمه، فكيف يَقوى فردٌ من الأفراد على دفعه

عمَّا أراد؟[١].

---

[١] **يقول المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبهذا تعلم اختلال ما استمر عند أئمة الاستدلال من قولهم في بعض ما يستدلون عليه: أنه وقع ولم يُنكَر فكان إجماعاً»، فهذا يسمى عند أهل العلم إجماع سكوتيا، والإجماع السكوتي فيه خلاف في صحته وفي حجيته، من العلماء من صححه ومنهم من منعه، والمؤلف من الذين يمنعونه.

فالمؤلف يقرر أن الإجماع السكوتي ليس بصحيح؛ لأن الساكت لا ينسب له قول حتى يتكلم؛ ولهذا قال المؤلف: من هنا تعلم بطلان قول الإجماع السكوتي، وهو قولهم: إنه وقع ولم ينكر فكان إجماعاً، ثم بيّن وجه بطلانه قال: ووجه اختلاله أن قولهم: ولم ينكَر رجم بالغيب؛ لأنه قد يكون أنكره بالقلب. حين تعذر عليه الإنكار باليد واللسان؛ لأنه يخاف من ضرر يصيبه في بدنه أو ماله أو أهله فيكون معذوراً.

ثم يقول: «وأنت تشاهد بنفسك، وأنت تشاهد في زمانك أنه كم من أمر يقع لا تنكره بلسانك ولا بيدك» لعجزك عنه، «وأنت منكر له بقلبك، ويقول الجاهل إذا رآك تشاهده: سكتَ فلان عن إنكاره» بقوله، لماذا يقول: سكت فلان عن الإنكار؟ إما لائم لك يلومك يقول لك: لماذا لا تتكلم؟ أو يريد أن يقتدي بك فيتأسى بسكوتك، فالسكوت لا يستدل به على عدم الإنكار.

«وكذا يعلم اختلال قوله في الاستدلال فعل فلان كذا وسكت الباقون فكان إجماعاً» يقول هذا باطل من وجهين:

الأول: «دعوى أن سكوتهم تقرير لفعل فلان، لما عرفته من عدم دلالة السكوت على التقرير»، فإن الساكت لا يقال إنه مقر للفعل، بل الساكت قد يكون منكراً بقلبه.

الثاني: «قولهم: فكان إجماعاً». والساكت لا ينسب إليه وفاق ولا خلاف حتى يتكلم إذ الإجماع: اتفاق أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور.

«قال بعض الملوك ـ وقد أثنى الحاضرون على شخص من عماله ـ =

....

=وفيهم رجل ساكت: ما لك لا تقول كما يقولون؟ فقال: إن تكلمت خالفتُهم». فليس كل من سكت راضٍ.

يقول المؤلف: «فإن هذه المنكرات» مثل المنكرات التي تكون حول القبور، والمكوس ومثل المقامات التي في الحرم الشريف في زمان المؤلف أسسها جبابرة ظلمة بيدهم السيف ولا يستطيع أحد أن ينكرها بلسانه فضلاً عن الإنكار بيده، فلذلك سكتوا فسكوتهم لا يدل على الرضى بل لعجزهم.

فإنَّ هذه القِبابَ والمشاهدَ التي صارت أعظمَ ذريعة إلى الشرك والإلحاد، وأكبرَ وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه، غالبُ، بل كلُّ مَن يَعمُرُها هم الملوكُ والسلاطينُ والرؤساء والولاةُ، إمَّا على قريب لهم أو على مَن يُحسنون الظنَّ فيه، مِن فاضل أو عالِم أو صوفيٍّ أو فقير أو شيخ أو كبير، ويزورُه الناسُ الذين يعرفونه زيارة الأموات، مِن دون توسُّل به ولا هَتف باسمه، بل يَدْعون له ويستغفرون، حتَّى ينقرِضَ مَن يَعرفه أو أكثرُهم، فيأتي مَن بعدهم فيجد قبراً قد شيد عليه البناءُ، وسُرِجَت عليه الشموعُ، وفُرِشَ بالفراش الفاخر، وأُرْخِيَت عليه الستورُ، وأُلْقِيَت عليه الأورادُ والزهور، فيعتقد أنَّ ذلك لنفع أو لدفع ضر، ويأتيه السَّدَنة يكذبون على الميِّت بأنَّه فعلَ وفعل، وأنزل بفلان الضَّرَر، وبفلان النفع، حتى يَغرسُوا في جِبلَّتِه كلَّ باطل، ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللَّعنُ على مَن أَسْرَجَ على القبور، وكتب عليها وبنى عليها، وأحاديثُ ذلك واسعةٌ معروفة، فإنَّ ذلك في نفسه منهي عنه، ثم هو ذريعةٌ إلى مفسدة عظيمة[١].

---

[١] **يقول المؤلف**: «إن هذه القباب والمشاهد» التي بُنيت على القبور «أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد»، بل إن الشرك والإلحاد واقع فيها، فلما بنيت القباب والمشاهد وقع بعض الناس في الشرك، فذبح ونذر لها وطاف بها، فكانت هي «أكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه»؛ لأنها من وسائل الشرك القريبة، «وغالب من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء الجهلة الظلمة، إما على قريب لهم يبنون عليه القبة، أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير»؛ أي: السالك أو «شيخ =

....

= أو كبير، فيزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات»؛ أي: يزورونه زيارة شرعية يدعون له ويترحمون عليه ويتذكرون الآخرة «من دون توسل به أو هتف باسمه، بل يدعون له»، هذه هي الزيارة الشرعية «حتى ينقرض من يعرفه فيأتي من بعدهم فيجد» وسائل الشرك فتغريه بالشرك «فيجد قبراً قد شيد عليه البناء»، ووضع عليه القباب «وسرجت عليه الشموع»، والإضاءة والأنوار «وفرش بالفراش الفاخر وأرخيت عليه الستور وألقيت عليه الأوراد والزوهور» فيُعبد من دون الله، فهذه وسائل الشرك قد سهلت الشرك فيعتقد أنه ما سرجت عليه السروج ولا وضعت عليه الورود والرياحين، والقباب، إلا لأنه ينفع ويضر، فيقع في الشرك ويأتي السدنة الذين يكذبون على الميت أنه فعل كذا وكذا، ويأتون بالقصص أنه دعاه فلان فأجاب دعاءه، وأنزل بفلان الضرر وبفلان النفع، ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج على القبور، قال ﷺ: **«لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها مساجد والسرج»**[١].

إذ السرج والأنوار وسيلة للشرك وهو أعظم الذنوب. وقال ﷺ: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»**[٢]. والأحاديث في ذلك واسعة ومعروفة[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٩)؛ والترمذي (٣٢٠)؛ وأبو داود (٣٢٣٦)؛ والنسائي (٤/ ٩٤)، وإسناده ضعيف فيه أبو صالح مولى أم هانئ وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٦)؛ ومسلم (٥٣١).

(٣) وهذه الوسائل منهي عنها لأنها ذريعة إلى مفسدة عظيمة وهي الشرك الذي هو أعظم الذنوب وأقبح الجرائم، والذنب الذي لا يغفر لمن لقي الله به إذ هو أعظم الظلم وأقبح القبيح إذ هو صرف محض حق الله تعالى إلى مخلوق ناقص لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فضلاً عن غيره.

فإن قلتَ: هذا قبرُ رسول الله قد عُمّرت عليه قُبَّة عظيمةٌ أُنفقت فيها الأموال.

قلتُ: هذا جهلٌ بحقيقة الحال، فإنَّ هذه القبَّة ليس بناؤها منه، ولا من أصحابه، ولا مِن تابعيهم، ولا تابعي التابعين، ولا مِن علماء أمَّته وأئمَّة مِلَّتِه، بل هذه القبَّة المعمولةُ على قبره مِن أبنية بعض مُلوك مصر المتأخرين، وهو قَلَاوُون الصالحي المعروف بالملك المنصور، في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في (تحقيق النصر بتلخيص معالم دار الهجرة)، فهذه أمورٌ دولية لا دليلية، يتبع فيها الآخرُ الأول.

وهذا آخرُ ما أردناه مِمَّا أوردناه لَمَّا عمَّت البلوى، واتُّبعت الأهواء وأعرض العلماء عن النكير، الذي يجبِ عليهم، ومالوا إلى ما مالت العامَّة إليه، وصارَ المنكرُ معروفاً والمعروف منكراً، ولَم نجد من الأعيان ناهياً عن ذلك ولا زاجراً[١].

---

[١] يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أنت تقول: إن القباب منكر، وأنها من وسائل الشرك، فهذا قبر النبي ﷺ عليه قبة، وسكت الناس عليها ولم ينكروها، فكيف تقول: إن القبة على القبر منكر ومن وسائل الشرك؟

أجاب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: بأن هذا جهل عظيم بحقيقة الحال، فهذه القبة من الذي وضعها؟ هل وضعها الصحابة؟ هل وضعها التابعون؟ هل وضعها العلماء؟ هل وضعها الصالحون؟ بل وضعها بعض الملوك الجهلة المتأخرون من ملوك مصر، وهو قلاوون الصالحي المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في (تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة)(١) =

---

(١) ص(١٢٦).

....

= وهو كتاب للعلامة زين الدين أبي بكر بن الحسين بن عمر العثماني المراغي المتوفى سنة ثمانمائة وستة عشر للهجرة.

يقول المؤلف: «هذه أمور دولية فعلها» بعض الملوك، وأفعال الملوك يتبع فيها الآخر الأول وليست أموراً دليلية. وليست حجة.

ثم **يقول بعد ذلك**: «هذا آخر ما أردناه» من هذه الرسالة «مما عمت فيه البلوى واتبعت فيه الأهواء، وأعرض العلماء عن النكير الذي يجب عليهم، ومالوا إلى ما مالت إليه العامة، وصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، ولم نجد من الأعيان ناهياً عن ذلك ولا زجراً»، سبق قريباً أن العلماء منهم مَن يستطيع الإنكار، فينكر في الرسائل، وفي المؤلفات، وفي الخطب، وأمام الناس وقد يعجز بعضهم عن الإنكار باليد أو اللسان ويكتفي بمن أنكر ويكون هو معذوراً وينكر بقلبه وتقوم الحجة بمن أنكر من العلماء وبيّن، ولا يمكن أن تجمع الأمة على السكوت وعدم الإنكار لقول النبي ﷺ: «**لا تجتمع أمتي على ضلالة**»[1] ولقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[2] رواه مسلم في صحيحه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٣).

(٢) رواه مسلم (١٩٢٠).

فإن قلتَ: قد يتَّفق للأحياء أو للأموات اتصالُ جماعة بهم، يفعلون خَوَارقَ من الأفعال يتَسمّون بالمجاذيب، فما حكم ما يأتون به من تلك الأمور؟ فإنَّها مِمَّا جُبلَت القلوب إلى الاعتقاد بها.

قلتُ: أما المتسمُّون بالمجاذيب الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم، ويقولونها بألسنتهم، ويخرجونها عن لفظها العربي، فهم مِن أجناد إبليس اللعين، ومِن أعظم حمر الكون الذين ألبستهم الشياطين حُلَل التلبيس والتزيين، فإنَّ إطلاقَ لفظ الجلالة منفرداً عن إخبار عنها بقولهم: (الله، الله) ليس بكلام ولا توحيد، وإنَّما هو تلاعبٌ بهذا اللفظ الشريف، بإخراجه عن لفظه العربيِّ، ثم إخلاؤه عن معنى من المعاني، ولو أنَّ رجلاً عظيماً صالحاً يُسَمَّى بزيد وصار جماعةٌ يقولون: (زيد زيد) لَعَدَّ ذلك استهزاءً وإهانةً وسخرية، ولا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريفَ اللفظ.

ثم انظر هل أتى في لفظةٍ من الكتاب والسنة ذكرُ الجلالة بانفرادها وتكريرها؟ أو الذي في الكتاب والسنة هو طلب الذكّر والتوحيد والتسبيح والتهليل، وهذه أذكارُ رسول الله وأدعيتُه وأدعية آله وأصحابه خاليةٌ عن هذا الشَّهيق والنهيق والنعيق، الذي اعتاده مَن هو عن الله وعن هدي رسول الله وسَمْتِه ودلِّه في مكان سحيق.

ثم قد يُضيفون إلى الجلالة الشريفة أسماءَ جماعة من الموتى، مثل: (ابن علوان) و(أحمد بن الحسين) و(عبد القادر) و(العيدروس)، بل قد انتهى الحالُ إلى أنَّهم يفرُّون إلى أهل القبور من الظلم والجور، كعلي رومان وعلي الأحمر، وأشباههما، وقد

صان الله ﷻ رسولَه وأهل الكساء وأعيانَ الصحابة عن إدخالهم في أفواه هؤلاء الضُّلَّال، فيجمعون أنواعاً من الجهل والشرك والكفر[١].

---

[١] أورد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ شبهة: وهي إنه قد يتفق للأحياء وللأموات أن يتصل بهم جماعة يفعلون خوارق من العادات، يتسمُّون بالمجاذيب، فما حكم فعلهم؟ وهل ينكر عليهم؟

أجاب المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: بأن هؤلاء المتسمون بالمجاذيب من الصوفية، وبعضهم يزعم أنه يتصرف في الكون، والمجاذيب هم ضعفاء العقول، فيزعمون أن «المجاذيب» وهو من ليس له عقل ـ وقد يكون مرميًّا في زبالة، وتكون شعوره وأظافره متروكة ـ أنه من الأقطاب الذين يتصرفون في الكون فهذا من الاعتقادات الكفرية الفاسدة ومن خوارق العادات التي تفعل عن طريق الشعوذة.

والصوفية يجعلون الناس ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى العامة، والطبقة الثانية الخاصة، والطبقة الثالثة خاصة الخاصة بزعمهم، ولكل طبقة من هؤلاء الثلاث ذكر خاص بهم، فالعامة ومنهم الأنبياء والرسل، ذكرهم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وأما الخاصة فذكرهم لفظ الجلالة يقولون: «الله، الله» حتى يغمى عليه ويسقط، وخاصة الخاصة ذكرهم الهاء من لفظ الجلالة يقولون: «هو، هو»، وهم يسمون الأنبياء والرسول وأتباعهم عامة، ويسمون الذين تجاوزوا هذه الطبقة وسقطت عنهم التكاليف خاصة وأذكارهم الله الله، وخاصة الخاصة هم القائلون بوحدة الوجود، وأذكارهم: (هو.. هو) إشارة إلى الله.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «هؤلاء يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم ويقولونها بألسنتهم ويخرجونها من لفظها العربي، فهم من أجناد إبليس اللعين، ومن أعظم حُمُر الكون» ـ جمع حمار ـ «والذين ألبستهم الشياطين حلل التلبيس والتزيين» وهذا لما مرّ أن إطلاق لفظ الجلالة مفرداً «ليس بكلام ولا توحيد، وإنما هو تلاعب بهذا اللفظ الشريف بإخراجه عن لفظه = =

....

=العربي، وإخلائه عن معنى من المعاني»، وهؤلاء هم الطبقة الثانية من طبقات الصوفية وهم الخاصة.

ويضرب المؤلف لذلك مثالاً «فيقول: لو أن رجلاً عظيماً صالحاً يسمى زيد، وصار جماعة يقولون: زيد زيد»، فما يفيد كلمة زيد شيئاً «ويعد ذلك استهزاء وإهانة وسخرية»، فكذلك إذا قال: الله الله فهذا سخرية واستهزاء وإهانة، «ولا سيما إذا زاد ذلك تحريف اللفظ».

ثم يقول المؤلف: «انظر هل أتى في لفظة من الكتاب والسُّنة ذكر الجلالة بانفرادها وتكريرها»؟ لا يوجد، فلا بدّ أن تضيف لها كلمة أخرى أو كلمات حتى تكون لها معنى، «فالذي في الكتاب والسنة هو طلب الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل، وهذه أذكار رسول الله وأدعية آله وأصحابه خالية عن هذا الشهيق والنهيق والنعيق» (هو هو)، لا يوجد دليل يدل على أنها ذكر حتى تضيف لها كلمة أخرى، «ثم قد يضيفون للفظ الجلالة الشريفة أسماء جماعة من الموتى مثل الله ابن علوان، الله أحمد بن الحسين، الله يا عبد القادر، الله يا عيدروس، بل قد ينتهي الحال إلى أنهم يفرون إلى أهل القبور من الظلم والجور كعلي رومان وعلي الأحمر وأشباههما».

«وقد صان الله ﷺ رسوله وأهل الكساء وأعيان الصحابة عن إدخالهم في أفواه هؤلاء الضُّلال»، لا يقولون: الله محمد، أو يقولون: الله أهل الكساء علي وفاطمة والحسن والحسين، لكن قد يقول بعض الشيعة: الله لعلي والحسين.

قال المؤلف: «فيجمعون أنواعاً من الجهل والشرك والكفر»؛ أي: حيث أشركوا بالله وجحدوا حقه وتوحيده، وما قدروا الله حق قدره وما عظموه حق تعظيمه لجهلهم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله وعظيم حقه.

فإن قلتَ: إنَّه قد يتفق مِن هؤلاء الذين يلوكون لفظ الجلالة، ويضيفون إليها عمل أهل الخلاعة والبطالة، خوارق عادات وأمور تُظنُّ كرامات، كطعن أنفسهم بالآلات الحادة، وحملهم لِمثل الحَنَش والحيَّة والعقرب، وأكلهم النَّار، ومسِّهم إياها بالأيدي، وتقلُّبهم فيها بالأجسام.

قلتُ: هذه أحوالٌ شيطانيَّة، وإنَّك لَمُلَبَّسٌ عليك أن ظننتَها كرامات للأموات، أو حسنات للأحياء؛ لَمَّا هَتفَ هذا الضال بأسمائهم، وجعلهم أنداداً وشركاءَ لله تعالى في الخلق والأمر، فهؤلاء الموتى أنت تفرض أنَّهم أولياء الله تعالى.

فهل يَرضَى وليُّ الله أن يجعلَه المجذوبُ أو السالكُ شريكاً له تعالى وندًّا؟ إن زعمتَ ذلك فقد جئت شيئاً إدًّا، وصيَّرتَ هؤلاء الأموات مشركين، وأخرجتهم ـ وحاشاهم عن ذلك ـ عن دائرة الإسلام والدِّين، حيث جعلتهم أنداداً لله، راضين فرحين، وزعمتَ أنَّ هذه كرامات لهؤلاء المجاذيب الضُّلَّال المشركين، التابعين لكلِّ باطل، المنغمسين في بحار الرذائل، الذين لا يَسجدون لله سجدة، ولا يذكرون الله وحده.

فإن زعمتَ هذا، فقد أثبتَّ الكرامات للمشركين الكافرين وللمجانين، وهدمتَ بذلك ضوابطَ الإسلام وقواعد الدِّين المبين والشرع المتين.

وإذا عرفتَ بطلان هَذين الأمرين علمتَ أنَّ هذه أحوالٌ شيطانيةٌ، وأفعالٌ طاغوتيَّةٌ، وأعمالٌ إبليسيَّة، يفعلها الشياطين

لإخوانهم مِن هؤلاء الضالِّين، معاونةً من الفريقين على إغواء العباد.

وقد ثبتَ في الأحاديث أنَّ الشياطينَ والجانَّ يتشكَّلون بأشكال الحيَّة والثعبان، وهذا أمرٌ مقطوعٌ بوقوعه، فهم الثعابين التي يُشاهدها الإنسانُ في أيدي المجاذيب، وقد يكون ذلك مِن باب السِّحر وهو أنواع، وتعلُّمُه ليس بالعسير، بل بابُه الأعظمُ هو الكفرُ بالله وإهانةُ ما عظَّمه الله، مِن جعل مُصحَف في كَنيف ونحوه.

فلا يَغتَرَّ مَن يشاهدُ ما يَعظُمُ في عينيه من أحوال المجاذيب من الأمور التي يراها خوارق، فإنَّ للسِّحرِ تأثيراً عظيماً في الأفعال، وهكذا الذين يقلبون الأعيانَ بالأسحار وغيرها[١].

---

[١] **يقول المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: «إن قلت: إن هؤلاء الصوفية الذين يذكرون الله بلفظ الجلالة، يضيفون إلى ذلك عمل أهل الخلاعة والبطالة خوارق العادات وأموراً تظن كرامات كطعن أنفسهم بالآلات الحادة وحملهم لمثل الحنش والحية والعقرب، وأكلهم النار ومسِّهم إياها بالأيدي، وتقلبهم فيها بالأجسام».

يقول المؤلف في جواب الشرط: هذا الذي يفعله هؤلاء الصوفية أحوال شيطانية ولا يظن أنها كرامات للأموات أو حسنات للأحياء فإن ظننت ذلك فهو ملبس عليك. إذ معلوم أنه إن طعن نفسه بالآلات الحادة مات لكن هو يسحر الأعين يخيل لهم أنه يطعن نفسه ويخيل للناس أنه قطع رقبة فلان فيأخذ برأسه ويكون أمام أعينهم انقطع والواقع أنه لم ينقطع ولكنه سحر أعين الناس، وكما يفعل بعض السحرة يأتي إلى البعير ويخيل للناس بأن يجعل السحر في أعينهم، فيخيل لهم أنه يدخل في فم البعير ويخرج من دبره، ويدخل من دبره ويخرج من فمه، وفي الواقع أنه يأتي حوله ولكن الأبصار مسحورة، هذا كله من أفعالهم، ومثل ذلك حملهم الحنش والحية والعقرب وأكل النار في فمه، كل هذا من الأعمال الشيطانية التي يضمونها إلى ما هم فيه من التصوف.

....

= ولهذا **قال المؤلف**: «قلت: هذه أحوال شيطانية وإنك لملبس عليك إن ظننتها كرامات للأموات، أو حسنات للأحياء»، فهذه أعمال شيطانية «لما هتف هذا الضال بأسمائهم، جعلها أنداداً وشركاء لله في الخلق والأمر»، ويعتقد أنهم يتصرفون في الكون.

ويقول المؤلف: «فهؤلاء الموتى أنت تفرض أنهم أولياء لله»، فهل يرضى ولي الله أن يجعله المجذوب أو السالك شريكاً لله ونداً؟ إذا كان صالحاً لا يرضى، وإن زعمت أنه قد رضي فقد جئت شيئاً إدّاً؛ أي: أمراً عظيماً وصيرت هؤلاء الأموات مشركين وأخرجتهم عن دائرة الإسلام والدين وحاشاهم عن ذلك حتى جعلتهم أنداداً لله فرحين راضين، إذا كان يرضى صاحب القبر بفعل هذا في حياته صار صاحبُ القبر طاغوتاً مشركاً كيف تصيره طاغوتاً وتزعم أن هذه كرامات لهؤلاء المجاذيب الضُّلّال المشركين التابعين لكل باطل المنغمسين في بحار الرذائل، الذين لا يسجدون لله سجدة ولا يذكرون الله وحده.

فإن زعمت هذا وقلت: إنها كرامات فقد أثبت الكرامات للمشركين والكافرين وللمجانين وهدمت بذلك ضوابط الإسلام وقواعد الدين المبين، والشرع المتين وإذا عرفت بطلان هذين الأمرين؛ يعني ما سبق من أفعال الصوفية المنحرفين علمت أن هذه أحوال شيطانية وأفعال طاغوتية، والطاغوت هو الذي تجاوز حده، وأعمال إبليسية يفعلها الشياطين لهؤلاء الضلال من إخوانهم معاونة من الفريقين، على إغواء العباد وقد ثبت في الأحاديث أن الشياطين والجان[١] يتشكلون بأشكال الحية والثعبان، فيتشكل الشيطان في صورة حية أو عقرب أو قطة أو كلب وهذا أمر مقطوع بوقوعه، فهم الثعابين التي يشاهدها الناس في أيدي المجاذيب، هي جني يتصور ولو ذكرت الله وسميت لذهب، وقد يكون ذلك من باب السحر، والسحر أنواع، وتعلمه ليس =

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٦) من حديث أبي سعيد وفيه قصة.

....

= بالعسير وبابه الأعظم هو الكفر بالله، بأن يطلب الشيطان الجنّي من الساحر أن يكفر بالله، كأن يسب الله أو يسب الرسول ﷺ، أو يطلب منه أن يبول على المصحف، أو يلطخه بالنجاسة، فإذا كفر والعياذ بالله علّمه السحر ولهذا قال المؤلف بل بابه الأعظم هو الكفر بالله وإهانة ما عظمه الله من جعل مصحف في كنيف أي في بيت الخلاء الذي تقضي فيه الحاجة نعوذ بالله، فلا يغتر من يشاهد ما يعظم في عينيه من أحوال المجاذيب من الأمور التي يراها خوارق فيظن أن هذه الخوارق كرامات وهي أفعال شيطانية، يقول المؤلف: فإن للسحر تأثيراً عظيماً في الأفعال وهكذا الذين يقلبون الأعيان بالأسحار وغيرها؛ أي يقلبون الأعيان في مرأى العين بسبب سحر العين، ولكن الحق والواقع أنهم لا يقدرون على قلب الأعيان حقيقة كجعل الحمار إنساناً والإنسان حماراً والذهب خشباً والخشب ذهباً لكن يكون ذلك في مرأى العين بسبب سحر الأبصار.

وقد ملأ سَحَرَةُ فرعون الوادي بالثعابين والحيات، حتى أَوْجَسَ في نفسه خِيفَةً موسى عليه السلام، وقد وصفه اللهُ بأنَّه سِحرٌ عظيمٌ، والسِّحرُ يَفعَلُ أعظَمَ من هذا[١]؛ فإنَّه قد ذكرَ ابنُ بَطوطة وغيرُه أنَّه شاهد في بلاد الهند قوماً توقَدُ لهم النارُ العظيمةُ، فيلبسون الثيابَ الرقيقة، ويخوضون في تلك النار، ويخرجون وثيابُهم كأنَّها لَم يَمسَّها شيءٌ.

بل ذكر أنَّه رأى إنساناً عند بعض ملوك الهند أتى بوَلَدَيْن معه، ثم قَطَعَهُما عضواً عضواً، ثمَّ رَمَى بكلِّ عُضوٍ إلى جهة فِرَقاً، حتى لَم يرَ أحدٌ شيئاً من تلك الأعضاء، ثمَّ صاح وبكى، فلم يَشعر الحاضرون إلَّا وقد نزل كلُّ عضوٍ على انفراده، وانضمَّ إلى الآخر، حتى قام كلُّ واحد منهما على عادته حيًّا سَوِيًّا، ذكر هذا في رحلته، وهي رحلة بَسيطة وقد اختُصِرَت، طالعتُها بمكة عام ست وثلاثين ومائة وألف، وأملاها علينا العلامةُ مفتي الحنفية في المدينة، السيد

---

[١] يقول المؤلف رحمه الله: السحر الآن معروف من قديم، وقد انتشر السحر في زمان موسى في مدائن مصر في وقت فرعون فأرسل الله موسى عليه الصلاة والسلام فكذبه فرعون وحصل بين موسى وبين السحرة يوم الزينة ما حصل وأعطى الله موسى العصا فصارت حية وأكلت جميع ما صنع السحرة في الوادي، وقال الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩]؛ وذلك حين قد ملأ سحرة فرعون الوادي بالحيات والعقارب، وجعلوا فيها الزئبق وصارت تتلوى، فأبطل الله سحرهم مع وصف الله له بأنه سحر عظيم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] وثبت الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٨].

محمد بن أسعد رَحِمَهُ اللَّهُ[١]..

---

[١] ابن بطوطة هذا رحالة معروف وما ذكره من أفعال السحرة منها ما هو صحيح، ومنها ما هو غير صحيح، ولا يستغرب من السحرة أنهم يفعلون مثل ما ذكر ابن بطوطة، وأنه شاهد في الهند قوماً توقد لهم نار عظيمة فيلبسون ثياباً رقيقة ويخوضون في تلك النار، ويخرجونُ ثيابهم كأن لم يمسها شيء، يدخلون النار أمام الناس، ويأكلون المسامير والسكاكين ويشقون بطونهم أمام الناس، كل هذا من أفعال السحرة لأنهم يسحرون أعين الناس كما قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولو كان ذلك حقيقة لماتوا من المسامير والسكاكين.

ويقول ابن بطوطة: إنه رأى إنساناً عند بعض ملوك الهند أتى بولدين معه وقطعهما عضواً عضواً ثم رمى بكل عضو إلى جهة حتى لم ير أحد شيئاً من تلك الأعضاء ثم صاح وبكى فلم يشعر الحاضرون إلا وقد نزل كل عضو على انفراده وانضم إلى الآخر حتى قام كل واحد منهما على عادته حياً سوياً، وهذا والله أعلم إما أنه سحر أعين الناس وأنه لم يقطعهما، أو أنه قطع أشياء غير هذا الشخصين أمام أعينهم، وهذا من سحر الأعين، والسحرة يفعلون الأفاعيل.

وفي الأغاني لأبي الفَرَج الأصفهاني بسنده: أنَّ ساحراً كان عند الوليد بن عقبة، فجعل يَدخُلُ في جَوف بقرة ويخرج، فرآه جندب رضي الله عنه، فذهب إلى بيته فاشتمل على سيفه، فلما دخل الساحرُ في البقرة، قال جندب: أتأتون السِّحر وأنتم تبصرون، ثمَّ ضرب وسط البقرة، فقطعها، وقطع الساحرَ معها، فانذعر الناسُ، فَحَبَسَه الوليدُ، وكتب بذلك إلى عثمان، وكان على السجن رجل نصراني، فلمَّا رأى جندباً يقوم الليلَ ويصبحُ صائماً، قال النصراني: والله إنَّ قوماً هذا شرُّهم لَقَوْمُ صِدق، فوَكَّلَ بالسِّجن رجلاً، ودخل الكوفةَ فسأل عن أفضل أهلها، فقالوا: الأشعث بنُ قيس، فاستضافه فرأى أبا محمد ـ يعني: الأشعث ـ ينام الليلَ ويصبح فيدعو بغدائه، فخرج مِن عنده وسأل: أيُّ أهل الكوفة أفضل؟ فقالوا: جَرير بن عبد الله، فوجده ينام، ثم يصبح فيدعو بغدائه. فاستقبل القبلةَ فقال: رَبِّي رَبُّ جُنْدُب، وديني دينُ جندب، وأَسْلَمَ.

وأخرجها البيهقي في السنن الكبرى بمغايرة في القصة، فذكر بسنده إلى أبي الأسود: (أنَّ الوليد بنَ عقبة كان في العراق يلعب بين يديه ساحر، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به، فيقوم صارخاً، فيَرُدُّ إليه رأسَه، فقال الناس: سبحان الله! يُحيي الموتى! ورآه رجلٌ من صالحي المهاجرين، فلمَّا كان مِن الغَدِ اشتمل على سيفه، فذهب يلعب لعبَه ذلك، فاخترط الرَّجل سيفَه فضرب عنقه، وقال: إن كان صادقاً فليحي نفسَه! فأمر به الوليد ديناراً صاحبَ السجن فسجَنَه)[١].

---

[١] هذه القصة يقول المؤلف ذكرت: في (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني بسنده وهو علي بن الحسين وهو صاحب كتاب =

....

= «الأغاني»[1]، وهو شيعي، وكان معروفاً في كتابه أنه يذكر الأخبار وأيام الناس والشعر والغناء والمحاضرات، ويأتي فيها بأعاجيب. وكتب الأدب لا يعتمد عليها في صدق الروايات والقصص ولكن القصة ذُكرت، وذكر فيها أن ساحراً كان عند الوليد بن عقبة في الكوفة وكان أميراً للكوفة، فجعل هذا الساحر يسحر أعين الناس ويخيل لهم أنه يدخل في جوف البقرة ويخرج منها، وفي الواقع أنه لا يدخل جوف البقرة لكنه سحر أعينهم يضع السحر في العيون ثم يخيل لهم أنه يدخل جوف البقرة ثم يخرج من دبرها، وفي الواقع أنه يمشي حولها وبين يديها ورجليها، فلما دخل الساحر في البقرة قال جندب: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣] ثم ضرب وسط البقرة فقطعها وقطع الساحر وقال: إن كان صادقاً فليحي نفسه، فانذعر الناس، فحبسه الوليد لأنه تصرف هذا التصرف من دون إذنه، وكتب بذلك إلى عثمان رضي الله عنه.

وكان على السجن رجل نصراني، فلما رأى جندباً يقوم الليل ويصبح صائماً، فقال النصراني:

والله إن قوماً هذا شرهم لقوم صدق؛ أي: إذا كان هذا المحبوس هو شرهم يقوم الليل ويصوم النهار، هذا يدل على أنهم قوم صالحون، فكانت هذه القصة سبباً في إسلامه، فوكل بالسجن رجلاً فدخل الكوفة، فسأل عن أفضل أهلها فقالوا: الأشعث بن قيس، فاستضافه فرأى أبا محمد ـ يعني الأشعث ـ ينام الليل، ويصبح فيدعو بغدائه، فخرج من عنده وسأل؛ أي أهل الكوفة أفضل؟ فقالوا: جرير بن عبد الله، فوجده ينام الليل فيصبح ويدعو بغدائه، فاستقبل القبلة، فقال: ربي رب جندب، وديني دين جندب، وأسلم. والقصة أخرجها البيهقي في السنن الكبرى بمغايرة لما ذكره أبو الفرج الأصفهاني.

فذكر بسنده إلى الأسود أن الوليد بن عقبة كان بالعراق يلعب بين يديه ساحر، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به، فيقوم صارخاً، فيرد إليه رأسه =

---

(١) مسلم، قال الذهبي: هو العلامة الإخباري أبو الفرج علي بن الحسن بن محمد الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني» كان بحراً في نقل الأدب وكان بصيراً بالأنساب وأيام العرب... والعجب أنه أموي شيعي.اهـ. «سير أعلام النبلاء» (١٦/٢٠١).

بل أعجبُ من هذا ما أخرجه الحافظ البيهقي بإسناده في قصة طويلة، وفيها: (أنَّ امرأةً تعلَّمت السِّحرَ مِن المَلَكَيْن ببابل هاروت وماروت، وأنَّها أخذت قمحاً، فقالت له بعد أن ألقته: اطلع، فطلع، فقالت: إحقل، فأحقل، ثمَّ تركته، ثم قالت: إيبَس، فيبس، ثم قالت له: اطحن، فأطحن، ثمَّ قالت له: اختبز فاختبز، وكانت لا تريد شيئاً إلَّا كان)[١].

والأحوال الشيطانيةُ لا تنحصر، وكفى بما يأتي به الدَّجَّال والمعيار اتِّباع الكتاب والسنة ومخالفتهما.

انتهى ما أوردناه ولله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً،

= هذا الذي ذكره العلماء كما في كتاب التوحيد[(١)] وغيره خلافاً لما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني. والقصة هي: أن الوليد كان بين يديه ساحر يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيقوم صارخاً فيرد إليه رأسه فقال الناس: سبحان الله، يحيي الموتى، وهو في الواقع ما ضربه ولكنه سحر أعين الناس ولو ضربه لمات قطعاً، ولا يمكن أن يكون حياً، ورآه رجل من المهاجرين والذي يظهر أنه جندب فلما كان من الغد اشتمل على سيفه وأتى إلى الساحر فأخذ يلعب لعبة ذلك فأخذ سيفه وضرب عنق الساحر فقال: إن كان صادقاً فليحي نفسه، فأمر به الوليد «ديناراً» المسؤول عن السجن فسجنه لأنه لم يأخذ رأيه وتصرف هذا التصرف، وجندب رضي الله عنه صحابي جليل أنكر المنكر لأنه قادر، وصبر على السجن.

[١] **قال المؤلف**: «بل أعجب من هذا ما أخرجه الحافظ البيهقي بإسناده في قصة طويلة» وهي أن امرأة تعلمت السحر من الملكين ببابل هاروت وماروت وأنها تقول كلمات... إلى آخر القصة، وهذه القصة ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره[(٢)] على قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا =

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص(٣٢٤).

(٢) فتح، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٤٣) عند قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ الآية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، كلَّما ذكره الذاكرون، وغَفَلَ عن ذكره الغافلون.

= كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] مثل ما ذكر المؤلف أن امرأة تعلمت السحر من الملكين ببابل هاروت وماروت وصارت إذا قالت شيئاً حصل لها ما تقول.

ومنها أنها أخذت قمح حبوب فقالت بعدما ألقته في الأرض: اطلع فطلع ثم قالت: احقل فصار حقلاً، صار زرعاً فيه حبوب في سنابل في الحال، ثم قالت: ايبس فيبست الحبوب في الحال، ثم قالت له: اطحن فانطحن في الحال فصار طحيناً، فقالت له: اخبز فصار خبزاً في الحال؛ يعني في لحظة واحدة طلع ثم صار حقلاً ثم صار طحيناً ثم خبزاً، وكانت لا تريد شيئاً إلا كان. والله أعلم بصحة هذه القصة، وهذه القصة إنما يذكرها العلماء على أنها من أفعال السحرة. فإن ثبتت هذه القصة بسند صحيح فذاك وإلا فهي محتملة.

يقول المؤلف: «والأحوال الشيطانية لا تنحصر ويكفي بما يأتي به الدجال في آخر الزمان»، فإنه يأتي بخوارق للعادات يجريها الله على يديه ابتلاءاً وامتحاناً فإنه يدعي الصلاح أولاً ثم يدعي النبوة ثم يقول للناس: أنا ربكم، وكان من الخوارق التي أخبر بها النبي ﷺ أن الدجال يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، ويأتي إلى الخربة فيقول أخرجي كنوزك تتبعه كنوزها كيعاسيب النخل، ويأتي إلى رجل فيقطعه قطعتين، ثم يمشي بينهما، ثم يقول: قم فيستوي قائماً، ولا يسلط على غيره أخبرنا به النبي ﷺ[(١)] وهو الدجال الأكبر وهؤلاء السحرة دجاجلة بين يديه ولكن الدجال الأكبر هو الذي يأتي في آخر الزمان.

يقول المؤلف: «المعيار[(٢)] اتباع الكتاب والسنة ومخالفتهما»، فمن اتبع الكتاب والسنة فهو على الحق، ومن خالفهما فهو على باطل.

وفق الله الجميع لطاعته، وثبت الله الجميع على الهدى والعمل الصالح، وتوفانا على الإسلام غير مغيرين ولا مبدلين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (١٨٢٢، ٣٣٣٨)؛ ومسلم (٢٩٣٧).
(٢) في نسخة: الميعاد (بالدال).

الفهرس

الموضوع	الصفحة